الطريق إلى القدس

دراسة تاريخية

في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين
منذ عصور الأنبياء وحتى القرن الحادي والعشرين

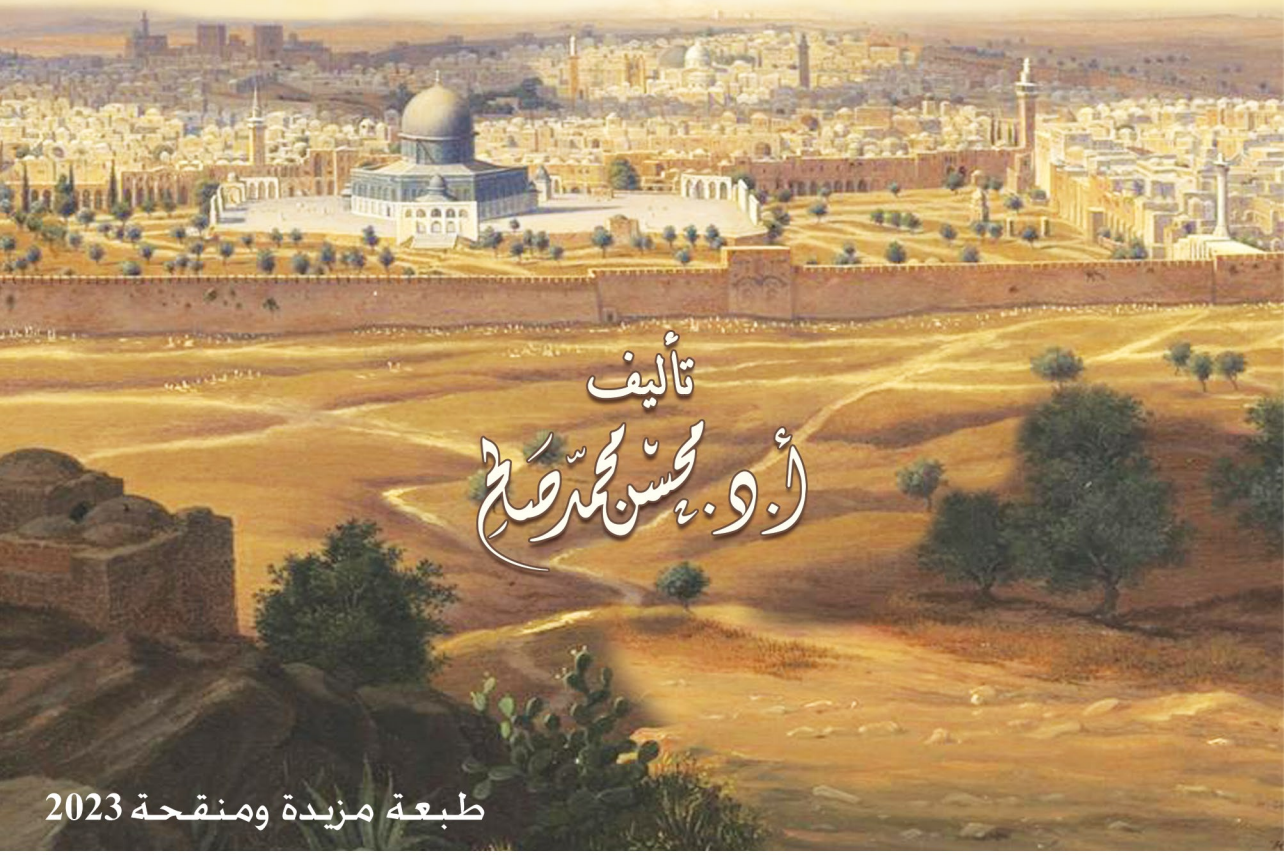

تأليف
أ.د. محسن محمد صالح

طبعة مزيدة ومنقحة 2023

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

الفصل الثاني

الفتح الإسلامي لفلسطين

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net الموقع: www.alzaytouna.net

يمكنكم التواصل معنا والاطلاع على صفحات المركز عبر الضغط على التطبيقات أدناه:

الفتح الإسلامي لفلسطين

أولاً: مكانة فلسطين الإسلامية:

تتمتع أرض فلسطين بمكانة خاصة في التصور الإسلامي، وهي المكانة التي جعلتها محط أنظار ومهوى أفئدة المسلمين، وسنشير هنا باختصار إلى أهم النقاط التي جعلتها تحظى بهذه المكانة:

- في أرض فلسطين المسجد الأقصى المبارك، وهو أول قبلة للمسلمين في صلاتهم، كما يعدّ ثالث المساجد مكانة ومنزلة في الإسلام بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي، ويُسنُّ شدّ الرحال إليه وزيارته، والصلاة فيه بـ 500 صلاة عما سواه في المساجد.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى".[1]

وقال ﷺ: "الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة".[2]

- أرض فلسطين أرض مباركة بنص القرآن الكريم ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾،[3] وقال تعالى ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾،[4] قال ابن كثير: بلاد الشام،[5] وقوله تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾،[6] قال ابن كثير: بلاد الشام،[7] وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾،[8] قال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها هي بيت المقدس.[9]

والبركة هنا حسية ومعنوية... لما فيها من ثمار وخيرات، ولما خُصت به من مكانة، ولكونها مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة الأطهار.[10]

- هي أرض مقدسة بنص القرآن الكريم، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.[11] قال الزجاج: المقدسة هي الطاهرة، وقيل سماها مقدسة لأنها طهرت من الشرك، وجعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين، قال الكلبي: الأرض المقدسة هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وقال قتادة: هي الشام كلها.[12]

- فلسطين أرض الأنبياء ومبعثهم عليهم السلام فعلى أرضها عاش إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، ولوط، وداود، وسليمان، وصالح، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم السلام، ممن ورد ذكرهم في القرآن الكريم، كما عاش على أرضها الكثير من أنبياء بني إسرائيل الذين كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي جاءهم نبي، وممن ورد ذكرهم في الحديث الصحيح: نبي الله يوشع عليه السلام.

- عندما يقرأ المسلمون القرآن الكريم يشعرون بارتباط عظيم بينهم وبين هذه الأرض؛ لأن ميدان الصراع بين الحق والباطل تركز على هذه الأرض، ولأنهم يؤمنون بأنهم حاملو ميراث الأنبياء، ورافعو رايتهم.

- المسجد الأقصى هو مسرى رسول الله ﷺ ومنه كان معراجه إلى السماء، وفي هذا المسجد جمع الله لرسوله الأنبياء من قبله، فأمّهم دلالة على انتقال الإمامة والريادة وأعباء الرسالة إلى الأمة الإسلامية.

- الملائكة تبسط أجنحتها على أرض فلسطين، التي هي جزء من الشام، ففي الحديث الصحيح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يا طوبى للشام، يا طوبى للشام، قالوا: يا رسول الله وبمَ ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطة أجنحتها على الشام".[13]

- هي أرض المحشر والمنشر، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال: "أرض المحشر والمنشر".[14]

- هي عقر دار الإسلام وقت اشتداد المحن والفتن، فعن سلمة بن نفيل قال: قال رسول الله ﷺ: "عقر دار الإسلام بالشام"،[15] وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "قال رسول الله ﷺ: إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام".[16]

- المقيم المحتسب فيها كالمجاهد والمرابط في سبيل الله، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أهل الشام وأزواجهم وذرياتهم وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله، فمن احتل مدينة من المدائن فهو في رباط، ومن احتل منها ثغراً من الثغور فهو في جهاد".[17]

- الطائفة المنصورة الثابتة على الحق تسكن الشام، وخصوصاً بيت المقدس وأكنافها، وذلك في أحاديث يفسر ويقوي بعضها بعضاً؛ فعن أبي أمامة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ

قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قيل يا رسول الله أين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس".[18]

هذه مكانة فلسطين من الناحية الدينية، وهي مكانة جعلتها جزءاً من عقيدة المسلمين ووجدانهم. وقد تعمقت هذه المكانة بالفتح الإسلامي لفلسطين، ووقوع عدد من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي على أرضها كأجنادين، وفحل – بيسان، واليرموك، وحطين، وعين جالوت. وباختلاط دماء الصحابة والتابعين والمجاهدين بثراها المبارك، وبهجرة وإقامة الكثير من الصحابة والتابعين والعلماء وأنسالهم فيها، وببروز عدد من أبنائها كعلماء وقادة ورجال حكم.

وهذا يقودنا إلى الإشارة إلى أحد معالم الحل الإسلامي المنشود لتحرير الأرض المباركة، وهو توسيع دائرة الصراع لتشمل كافة المسلمين المؤمنين بحقهم فيها، وعدم التفريط بأي جزء منها باعتبارها أرضاً إسلامية مقدسة، وباعتبارها جزءاً من عقيدة المسلمين ووجدانهم. وإن استشعار المسلمين بواجبهم تجاه تحرير أرض الإسراء، وقيامهم بخطوات عملية في هذا الإطار هو ضمانة حقيقية للسير بخطوات جادة لتحقيق آمال المسلمين باستعادة أرضهم ومقدساتهم.

ثانياً: أنظار المسلمين تتجه إلى فلسطين:

استمرت الهيمنة الرومانية على فلسطين بعد أن رفع الله سبحانه المسيح إليه، وفي عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير (306–337م) تمّ الاعتراف رسمياً بالمسيحية في المرسوم الشهير بمرسوم ميلان Edict of Milan الصادر سنة 313م، وقد تنصر قسطنطين نفسه، وأقام في مدينة القدس "في المكان الذي يعتقد النصارى أن السيد المسيح دفن فيه" كنيسة الضريح المقدس، التي أصبحت أعظم الكنائس شأناً عند النصارى، وبنى فوق جبل الزيتون كنيسة الصعود، وأقام كنيسة الميلاد في بيت لحم، وقسطنطين نفسه هو الذي بنى مدينة القسطنطينية "إسطنبول" 330م.

وقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي، وذلك بعد موت الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I في 395م، فتكونت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) وعاصمتها القسطنطينية، والإمبراطورية

الرومانية الغربية، وعاصمتها روما، وما لبثت الإمبراطورية الغربية أن سقطت في 476م لكن الإمبراطورية الشرقية التي عرفها العرب بدولة الروم حافظت على الهيمنة على فلسطين باستثناء فترات ضئيلة حتى جاء الفتح الإسلامي.[19]

ولد رسول الله ﷺ سنة 570م وبعد أربعين سنة نزل عليه الوحي، وتحمل أمانة الرسالة والدعوة، ولقي في الفترة المكية التي استمرت 13 سنة الكثير من العنت والإيذاء،[20] ومنذ هذه الفترة وقبل أن تتشكل دولة الإسلام في المدينة كانت أنظار المسلمين الأوائل ترنو إلى المسجد الأقصى في فلسطين فقد كان قبلتهم الأولى في الصلاة،[21] وجاءت معجزة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم المعراج إلى السماء في السنة العاشرة[22] للبعثة النبوية لتؤكد عمق الارتباط بين الإسلام وبين أرض فلسطين المقدسة؛ حيث يوجد المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

وبعد أن تشكلت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وعندما وقعت غزوة الخندق 5هـ، وفي غمرة الموقف العصيب من تآلب قوى الشرك على المسلمين وحصارهم ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾،[23] في هذا الموقف ضرب رسول الله ﷺ صخرة تطاير منها شرر، فبشر المؤمنين بفتح بلاد الروم، كما بشرهم بفتح اليمن وفارس،[24] وهكذا فإن نفوس المؤمنين لم تكن لتفارقها الآمال والثقة بالله في النصر وتحرير الأرض من كل سلطان غير سلطان الله حتى من تلك القوى الكبرى التي كان يبعث مجرد ذكرها الرعب في النفوس.

وبعد أن أخذت أركان الدولة الإسلامية تتوطد في جزيرة العرب أرسل رسول الله ﷺ رسائله إلى الحكام والملوك يدعوهم إلى الإسلام باعتباره رسولاً إلى كل البشرية، فكانت رسائله سنة 7هـ إلى كسرى فارس، وقيصر الروم هرقل Heraclius، وإلى المقوقس حاكم مصر، أما كسرى فمزق كتاب رسول الله، فدعا عليه الرسول ﷺ أن يمزق الله ملكه، وأما قيصر الروم فيظهر من الروايات أنه مال إلى الإسلام، ورغب في الدخول فيه، غير أنه خاف من الروم على نفسه وملكه،[25] وكان هرقل في تلك الفترة قد انتصر على الفرس، وأجلاهم عن الشام، ولعله عاد إلى القدس ليشكر الله على نصره،[26] وهو النصر الذي أشار إليه القرآن الكريم ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾.[27]

وكان فتح خيبر وفدك 7هـ إلى الشمال من جزيرة العرب مقدمة للتطلع إلى الشام، فكانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة 7هـ – أيلول/ سبتمبر 628م والتي حدثت إثر قتل أحد زعماء الغساسنة "شرحبيل بن عمرو الغساني" لرسول رسول الله "الحارث بن عمير الأزدي" إلى ملك بصرى. كان جيش المسلمين مكوناً من 3 آلاف رجل واجهوا حسب الروايات 100 ألف رجل من جند الروم، و100 ألف أخرى من العرب المناصرين للروم بقيادة مالك بن رافلة.

وقد وقعت المعركة في شرق الأردن جنوب مدينة الكرك بنحو 11 كم، وفيها استشهد أمراء المسلمين الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وتمكّن خالد بن الوليد الذي تولى الزمام من تحقيق انسحاب كريم موفق، وقُتِل في المعركة مالك بن رافلة الزعيم العربي الموالي للروم.[28]

ثم كانت غزوة تبوك 9هـ التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه، وتحت قيادته 30 ألفاً بعد أن بلغه أن الروم ومن يواليهم أعدوا العدة ضدّه، ولكنه عندما وصل تبوك (شمال جزيرة العرب على مشارف الشام) استبان له أنه ليس للروم جموع هناك، غير أنه ﷺ وطَّد سلطة المسلمين في تلك المناطق، وأرسل خالد بن الوليد ففتح "دومة الجندل" وصالحه أهل أيلة (على خليج العقبة)، وأذرح وتيماء وجرباء على أداء الجزية.[29]

ومع نهاية العهد النبوي كانت بطون بعض القبائل في شرق الأردن قد أسلمت، ومن ذلك إسلام أهل تبالة وجرش وبطون من قضاعة، وقبيل وفاته ﷺ كان يعد العدة لخروج جيش أسامة؛ حيث أمره بالانطلاق إلى الجهاد؛ حيث قتل أبوه زيد بن حارثة، وعقد له اللواء آخر يوم من صفر 11هـ – 28 أيار/ مايو 632م، ولكن مرض رسول الله ﷺ ووفاته في 12 ربيع الأول أخّر خروج هذا الجيش حتى أمره الخليفة أبو بكر الصديق بذلك، فخرج في أول ربيع الثاني 11هـ – 27 حزيران/ يونيو 632م، وثبَّت جيش أسامة شوكة الإسلام على تخوم الشام، وعاد سريعاً إلى المدينة في وقت انشغل فيه المسلمون بحرب الردّة.[30]

وما نريد أن نخلص إليه هنا أن أنظار المسلمين وقلوبهم ظلّت سنوات طويلة معلقة ببيت المقدس والمسجد الأقصى حتى قبل أن يتم لهم فتح فلسطين. بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه، فإن كثيراً من سور القرآن وآياته التي كانت تتنزل تباعاً على رسول الله ﷺ كانت تتحدث عن قصص الأنبياء، وكان ميدان العديد منها هو أرض فلسطين (يعقوب، ولوط، وزكريا، ويحيى، وداود، وسليمان، وعيسى،... عليهم السلام)، مما عمّق الارتباط النفسي والإيماني بهذه الأرض.

ثالثاً: وقفات مع منهج الفتح ودوافعه:

قبل أن نستطرد في الحديث عن فتح الأرض المقدسة، لا بدّ من وقفات لاستجلاء المنهج الذي بنيت على أساسه فكرة الفتوحات، والدوافع التي دفعت إليها:

الوقفة الأولى: في الإشارة إلى حقيقة الجهاد؛ فلقد كان من الواضح، لأي باحث مُنصف، أن القيام بواجب الجهاد في سبيل الله، وتبليغ دعوة الإسلام إلى البشرية، والسعي إلى الفوز بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة، هي الأهداف الحقيقية التي دفعت المسلمين لتحقيق أعظم وأرحم حركة فتح لبقاع الأرض في التاريخ. ولم تكن حركة الفتوح هذه مبنية على المنافع المادية أو المصالح الشخصية أو بسبب جدب الأرض وضيق العيش، كما لم تكن هذه الفتوح عملاً عدوانياً أو إكراهاً للناس على اتباع الإسلام تحت تهديد السيوف... . بل كان الجهاد هو ضدّ تلك الأنظمة والسلطات التي تحول بين الإسلام وبين دعوته للناس، ونشر نوره في الأرض.

يقول سيد قطب "إن هذا الدين موضوعه الإنسان ومجاله الأرض وهو إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله، وهو إعلان حركي واقعي إيجابي يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله".... "إن الإسلام ليس مجرد عقيدة، فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر بحيث يكون النظام الذي يحكم البشر قاعدته العبودية لله وحده، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده، ثم ليعتنق كل فرد في ظلّ هذا النظام العام ما يعتنقه من عقيدة".... "إن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه أو أن تسالمه بجملتها، فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي أو قوة مادية، وأن تخلي بينه وبين كل فرد يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته، ولكن لا يقاومه ولا يحاربه فإن فعل ذلك كان على الإسلام أن يقاتله ...".[31]

ثم إن الجهاد في سبيل الله لا يكون جهاداً إلا إذا قصد به وجه الله، وأن يكون وفق ما شرع الله، يقول حسن البنا:

> فرض الله الجهاد على المسلمين لا أداة للعدوان ولا وسيلة للمطامع الشخصية، ولكن حماية للدعوة، وضماناً للسلم، وأداء للرسالة الكبرى التي حمل عبئها المسلمون، رسالة هداية الناس إلى الحق والعدل. والمسلم يخرج للقتال، وفي نفسه أمر واحد أن يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وقد فرض

دينه عليه أن لا يخلط بهذا القصد غاية أخرى، فحب الجاه عليه حرام، وحب الظهور عليه حرام، وحب المال عليه حرام، والغلول من الغنيمة عليه حرام، وقصد الغلب بغير حق عليه حرام، والحلال أمر واحد أن يقدم دمه وروحه فداء لعقيدته، وهداية للناس.[32]

فالجهاد في الفهم الإسلامي مربوط بأنه "في سبيل الله"، أما ثمنه فهو "الجنة" وليس لحظّ النفس فيه في الدنيا نصيب، لأنه بذل للمال والنفس، وانظر إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾.[33]

الوقفة الثانية: في الإشارة إلى أن عملية فتح بلاد الشام، وغيرها، بُنيت وتمت على الرغبة الصادقة في الجهاد في سبيل الله، وعلى هذا الأساس انطلقت، وقام المسلمون بالتطبيق العملي لمعاني الجهاد في أثناء فتوحاتهم، فعندما يقلّب أي باحث مُنصف صفحات التاريخ والسِّير يجد التزاماً حقيقياً كاملاً لدى الصحابة والفاتحين بمعاني الجهاد الإسلامي وأهدافه وغاياته وضوابطه، وفي الإشارة إلى هذه الحقيقة سنقتصر على بعض ما ورد في فتوح الشام.

فعندما بعث أبو بكر أنس بن مالك في ربيع الثاني 12هـ – حزيران/ يونيو 633م لأهل اليمن لفتح الشام، كتب أبو بكر لهم:

... أما بعد: فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً، وقال: جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا وخرجوا، وحسنت في ذلك نيتهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا –عباد الله– إلى فريضة ربكم، وإلى إحدى الحسنيين، إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة، فإن الله لم يرضَ عن عباده القول دون العمل، ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق، ويقروا بحكم الكتاب، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون... .[34]

وأوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان عند خروجه بجيشه إلى الشام قائلاً: "عليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشهدهم تقرباً إليه بعمله..."،[35] وفي وصية أخرى من أبي بكر ليزيد قال له:

يا يزيد إني أوصيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له، والخوف منه، وإذا لقيت العدو فأظفركم الله بهم فلا تغلل، ولا تمثِّل، ولا تغدر، ولا تجبن، ولا تقتلوا وليداً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلاً، ولا تعرفون [تقشروه وتفسدوه]، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكلة، وستمرون بقوم في الصوامع يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، فإذا لقيتم العدو من المشركين، فادعوهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوكم فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، ادعوهم إلى الإسلام، فإن هم أبوا أن يدخلوا الإسلام فادعوهم إلى الجزية، فإن هم فعلوا، فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، فإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله، ولينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب.[36]

ومن وصية أبي بكر لخالد بن سعيد "... وقد خرجت في هذا الوجه العظيم الأجر، وأنا أرجو أن يكون خروجك فيه **لحسبة ونية صادقة** إن شاء الله".[37]

وقال أبو بكر في وداعه لأبي عبيدة عندما خرج بجيش للشام "اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له، ثم يعمل بما أمر به، إنك تخرج في أشراف الناس وبيوتات العرب وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية وهم اليوم يقاتلون على الحسبة والنية الحسنة، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً، اخرج من غد إن شاء الله".[38]

وفي اليوم التالي جاءه أبو بكر وقال له عند فراقه "يا أبا عبيدة، اعمل صالحاً، وعش مجاهداً، وتوفَّ شهيداً يعطك الله كتابك بيمينك، ولتقر عينك في دنياك وآخرتك، فوالله إني لأرجو أن تكون من التوابين الأوابين المخشعين الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة. إن الله قد صنع بك خيراً وساقه إليك؛ إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين إلى عدوه من المشركين تقاتل من كفر بالله، وأشرك به، وعبد معه غيره".[39]

وفي وداعه لعمرو بن العاص قال أبو بكر له: "اتقِ الله في سرك وعلانيتك، واستحيه في خلواتك، فإنه يراك في عملك، وأرد بعملك وجه الله، واتقِ الله إذا لقيت العدو".[40]

وعندما صرف الصديق خالداً إلى غزو الشام كان فيما كتب له: "وإن الجموع لم تشج بعون الله شجيك، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدلَّ بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء".[41]

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

هذه بعض المختارات المنتقاة في بدء مسيرة الفتوح، ولولا خشية الإطالة لخرج من الجعبة الكثير، ولن نُفصِّل في الشروح والتعليقات لوضوح النصوص وقوتها، ويكفي أنها أكدت على الأسس التي انطلقت من أجلها حركة الفتح والجهاد، أما كيف نفَّذ الصحابة هذه التوجيهات في معاركهم ودعوتهم وانتشارهم فهو ما سنتركه لذكر بعض أمثلته في حينه.

الوقفة الثالثة: ونركز فيها أيضاً على جانب مهمّ تضمنته وصايا أبي بكر لقادة الجيوش الإسلامية التي ذهبت لفتح الشام، ألا وهي فنّ قيادة الجيش المسلم، وبعض أساليب التعامل. ونذهب إلى أنها من أرقى وأروع ما ذكر في فنّ إدارة الجيوش، غير أنها تعطي للجيش المسلم بعداً رسالياً إيمانياً، يميزه في سلوكه الفردي والقيادي، وتجمع بين الانضباط والطاعة عن حبّ واقتناع، وتمنع تسلط القائد على الأفراد، وتوجب الشورى، والتعبئة المعنوية، وتراعي أصول السرية، وتؤكد على أن الجهاد عبادة وعمل خالص لله.

ففي وصية أبي بكر ليزيد عند خروجه إلى الشام:

> وإذا قدمت على جندك، فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه، وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا تُرينَّهم فيروا خللك، ويعلموا علمك، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرَّك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك. واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عنك الأستار، وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل من محرسه، فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تَخَفْ من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها ولا تسرع إليها ولا تخذلها مُدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالسن العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء. واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرِّب الفقر ويدفع النصر... .[42]

وفي رواية أخرى مما ذكره أبو بكر ليزيد في وداعه: "وإذا وعدت فأنجز...، وإذا بلغك عن العدوّ عورة فاكتمها حتى تعاينها...، واصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك".[43]

ومن وصية أبي بكر لعمرو بن العاص: "... وكن والداً لمن معك، وارفق بهم في السير، فإن فيهم أهل ضعف....، وإياك أن تكون واهناً عما ندبتك إليه، وإياك والوهن أن تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به...." وأمره ببرّ المهاجرين والأنصار ثم قال:

> ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول إنما ولاني أبو بكر لأني خيرهم، وكن كأحدهم، وشاورهم فيما تريد من أمرك، والصلاة ثم الصلاة أذن بها إذا دخل وقتها....، وإذا وعظت فأوجز، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك....، وألزم أصحابك قراءة القرآن، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها، فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك.... .[44]

وعندما أوصى أبو بكر خالد بن سعيد كان مما ذكره:

> ... فثبِّت العالم، وعلّم الجاهل، وعاتب السفيه المترف، وانصح لعامة المسلمين، واخصص الوالي على الجند من نصيحتك ومشورتك ما يحق لله وللمسلمين عليك، واعمل لله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واعلم أنا عما قليل ميتون ثم مبعوثون ثم مساءلون ومحاسبون، جعلنا الله وإياك لأنعمه من الشاكرين ولنقمه من الخائفين.[45]

رابعاً: الخطوات الأولى:

استمرت عمليات المسلمين في القضاء على الردة التي انتشرت في جزيرة العرب إثر وفاة رسول الله ﷺ حتى نهاية 11هـ، ومع بداية 12هـ زحف خالد بن الوليد ومعه جيش عدده 18 ألفاً على العراق، وأخذ يحقق انتصارات متوالية هناك (ذات السلاسل محرم 12هـ، والمذار صفر 12هـ، والولجة صفر 12هـ، وأُلَّيس صفر 12هـ، وأمغيشيا صفر 12هـ، وفتح الحيرة ربيع الأول 12هـ).[46] وجاء شرحبيل بن حسنة من العراق مبشراً أبا بكر بفتح الحيرة، ورأى شرحبيل رؤيا أولها بفتح الشام، وحدث بها أبا بكر الذي أخبره أن نفسه تحدثه أيضاً بفتح الشام.[47]

وفي 30 ربيع الأول 12هـ – 14 حزيران/ يونيو 633م جمع أبو بكر كبار الصحابة، واستشارهم في فتح الشام، فوافقوه على رأيه ثقة منهم بأنه ناصح للدين، حريص على المسلمين، ثم إن أبا بكر قام فدعا الناس للجهاد "فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم، وشدة شوكتهم"، وقام عمر بن الخطاب فحضهم على الجهاد، وتقدم خالد بن سعيد فأحسن الحديث فأمَّره أبو بكر، وأعلن خالد بن سعيد أنه وأهله حبساء في سبيل الله، وعقد أبو بكر لخالد بن سعيد لواء، فكان أول لواء عقد لغزو الشام، 2 ربيع الثاني 12هـ – 16 حزيران/ يونيو 633م، وأشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بألا يولي خالد بن سعيد قيادة الجيش لعدم أهليته، فاكتفى أبو بكر بجعله على رأس قوة محدودة، وأمره أن ينزل تيماء كقوة احتياطية.[48]

ثم إن أبا بكر أرسل إلى يزيد بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة فأخبرهم أنه باعثهم ومؤمرهم على الجنود، فإذا اجتمعت قواتهم فأميرهم أبو عبيدة، وأرسل أبو بكر كتاباً إلى اليمن يستنفرهم للجهاد مع أنس بن مالك، وأخذت أفواج المسلمين تتجمع وتتجهز للجهاد من كل حدب وصوب.[49]

كان جيش يزيد بن أبي سفيان أول الجيوش خروجاً إلى الشام، وكان ذلك تقريباً في 23 رجب 12هـ – 3 تشرين الأول/ أكتوبر 633م، وكان مكوناً من نحو سبعة آلاف رجل، ثم تبعه جيش شرحبيل بعد ذلك بنحو أربعة أيام، ثم جيش أبي عبيدة بعد شرحبيل بنحو عشرة أيام، وكان معاذ بن جبل في جيش أبي عبيدة، كما ألحق أبو بكر خالد بن سعيد بجيش أبي عبيدة.[50]

خرج إمبراطور الروم هرقل من فلسطين بعد أن بلغته تحركات المسلمين نحو 23 شعبان 12هـ – 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 633م إلى دمشق، ثم إلى حمص، ثم إلى أنطاكية، فبلغها قرابة 633/11/18م واتخذها مقره، ومن هناك أخذ ينظم الجيوش، ويحشد الحشود لملاقاة المسلمين.[51]

نزل جيش يزيد منطقة البلقاء شرق الأردن، ونزل جيش شرحبيل نواحي بصرى، أما جيش أبي عبيدة فنزل الجابية، وأمّر أبو بكر عمرو بن العاص على جيش رابع من ألفين إلى ثلاثة آلاف، وقد التحق بهذا الجيش سادات قريش وأشرافها مثل عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وسلك عمرو طريق المعركة إلى أيلة متجهاً إلى فلسطين.[52]

وبعد أن بلغت أبا بكر حشود الروم الهائلة، وبعد أن بلغته انتصارات خالد بن الوليد الكبيرة في العراق، أرسل إلى خالد في 21 محرم 13هـ – 28 آذار/ مارس 634م تقريباً يطلب إليه الذهاب للشام غوثاً للمسلمين، وخرج خالد من العراق قرابة 8 صفر 13هـ – 14 نيسان/ أبريل 634م بمدد من تسعة آلاف رجل ليصبح مجموع عدد القوات الإسلامية في الشام 33 ألفاً.[53]

معسكرات المسلمين في الشام

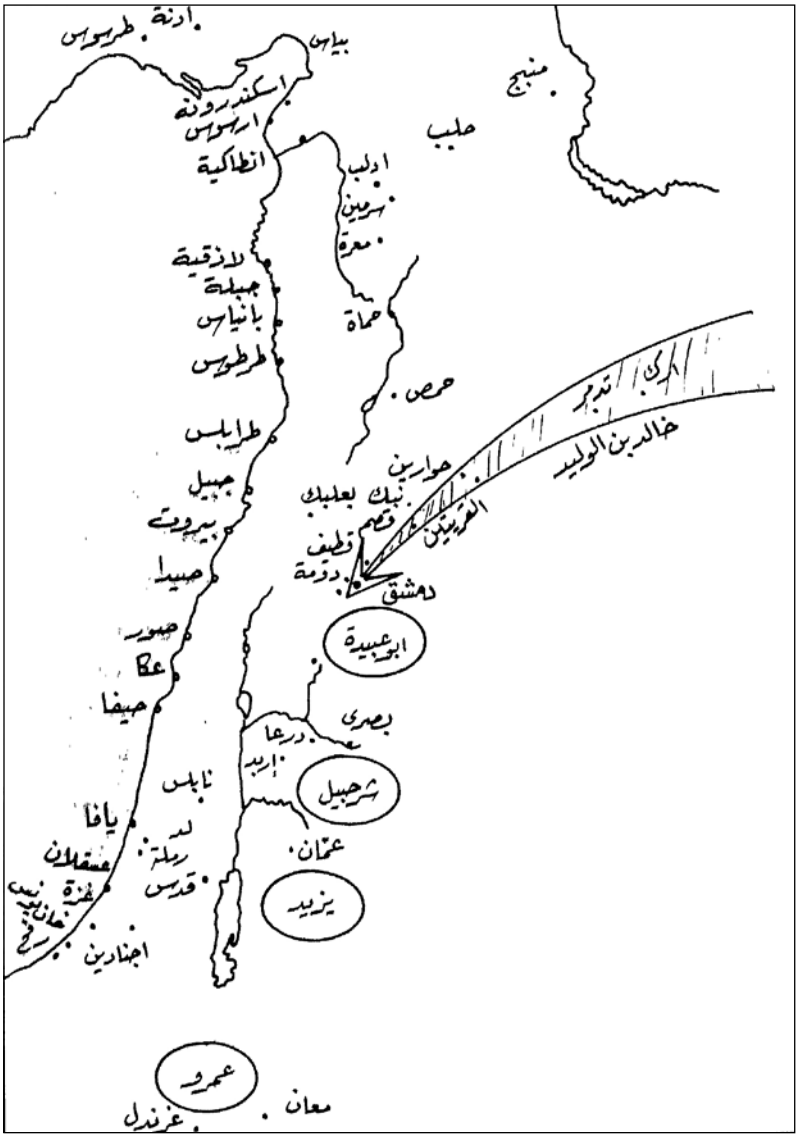

المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)** (بيروت: دار النفائس، 1980)، ص 243.

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

استعداد للنزال:

في الوقت الذي أخذت فيه جيوش المسلمين بالزحف لفتح الشام، كان هرقل في أنطاكية يعد الجيوش والإمدادات لملاقاة المسلمين، وبلغ أبا عبيدة عظم الحشود الرومية، فأرسل إلى أبي بكر بذلك، فردَّ عليه برسالة في شوال 12هـ – كانون الأول/ ديسمبر 633م جاء فيها:

> فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه وفتح من الله عليك وعلى المسلمين، وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته وجمعه لكم الجموع فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم ويخرجوا من ملكهم بغير قتال. وقد علمت والحمد لله قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم للحياة، ويرجون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم، وعقائل أموالهم، والرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين، فالقهم بجندك، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين فإن الله معك، وأنا مع ذلك ممدك بالرجال حتى تكتفي، ولا تريد أن تزداد إن شاء الله.[54]

أول المعارك:

كانت أولى المعارك على أرض الشام بعد سرية أسامة بن زيد هي موقعة العربة وداثنة (24 ذي الحجة 12هـ – آذار/ مارس 634م) فقد دفع الروم قوة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى مدينة غزة، ولعلها توجهت إلى وادي عربة جنوب البحر الميت، وهناك التقت بقوة من المسلمين، فهزمها المسلمون وقتلوا قائداً من قوادها، وانسحبت القوة فلاحقها المسلمون؛ حيث التقوا مرة أخرى عند الداثنة قرب غزة، وهزم الروم مرة أخرى.[55]

خالد بن الوليد يتولى القيادة العامة:

ويبدو أن موقعة العربة وداثنة كانت أقرب إلى اختبار القوة، ويظهر أن الروم قد أخذوا يشعرون بشكل أكبر بخطورة الموقف، فأخذوا يتجمعون ويحشدون، فأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد لينجد المسلمين بالشام، فوصل خالد على عجل في صفر 13هـ – نيسان/ أبريل 634م وتولى القيادة العامة للجيوش الإسلامية في بلاد الشام مكان أبي عبيدة.[56]

خامساً: معركة أجنادين:

كانت معركة أجنادين أولى المعارك البارزة المهمة في فتوح الشام، وقد وقعت على أرض فلسطين، وبالرغم من أن أجنادين لا يظهر لها ذكر في الخرائط، إلا أنها حسب استنتاج أحمد عادل كمال تبعد 11 كم إلى الشمال من بيت جبرين و39 كم إلى الجنوب من الرملة.[57]

التقت جيوش المسلمين الخمسة (أبو عبيدة، وخالد، ويزيد، وشرحبيل، وعمرو) في منطقة أجنادين تحت قيادة خالد بن الوليد، وكان عددهم يقدر بـ 33 ألف رجل، أما قوات الروم فوصل عددها إلى نحو 100 ألف رجل.[58]

وفي يوم المعركة نهار يوم السبت 27 جمادى الأولى 13هـ – 30 تموز/ يوليو 634م، أخذ معاذ بن جبل، قائد ميمنة المسلمين، يقول: "يا معشر المسلمين اشروا أنفسكم اليوم لله، فإنكم إن هزمتموهم اليوم كانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبداً مع رضوان الله والثواب العظيم من الله"،[59] وتحت هذه المعاني الإيمانية الربانية خاض المسلمون معركتهم على أرض فلسطين.

هاجم الروم ميمنة المسلمين ثم ميسرتهم، فصمد المسلمون، ثم رموا المسلمين بالنشاب...، ثم إن المسلمين هاجموهم فهزموهم بسرعة كبيرة، وروى الطبري عن ابن إسحق أن قائد الروم قال لهم: "لفوا رأسي بثوب، قالوا: ولم؟ قال: يوم بئيس لا أحب أن أراه!! ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا، فاحتز المسلمون رأسه، وإنه لمُلَفّف".[60]

وقتل من الروم في هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف، وتفرقت فلولهم إلى القدس وقيسارية ودمشق وحمص، واستشهد من المسلمين أبان بن سعيد بن العاص، وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص، وطليب بن عمير بن وهب وهو ابن أروى بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ.[61]

مثّلت هذه المعركة انتصاراً كبيراً للمسلمين، وتحطمت هيبة الروم، وشعر المسلمون عملياً بفضل الإيمان والصبر والاحتساب على الأعداد والعتاد التي يملكها عدوهم...، وانطلقوا لاستكمال فتوحهم بعزيمة وثبات صقلتها الخبرة والتجربة.

ويظهر أن المسلمين لم يستكملوا فتوحاتهم داخل فلسطين بعد هذه المعركة، فلم تتجه قواتهم شمالاً داخلها، وإنما توجهوا إلى دمشق ملتفين من جنوب البحر الميت مارِّين بشرق الأردن.

معركة أجنادين

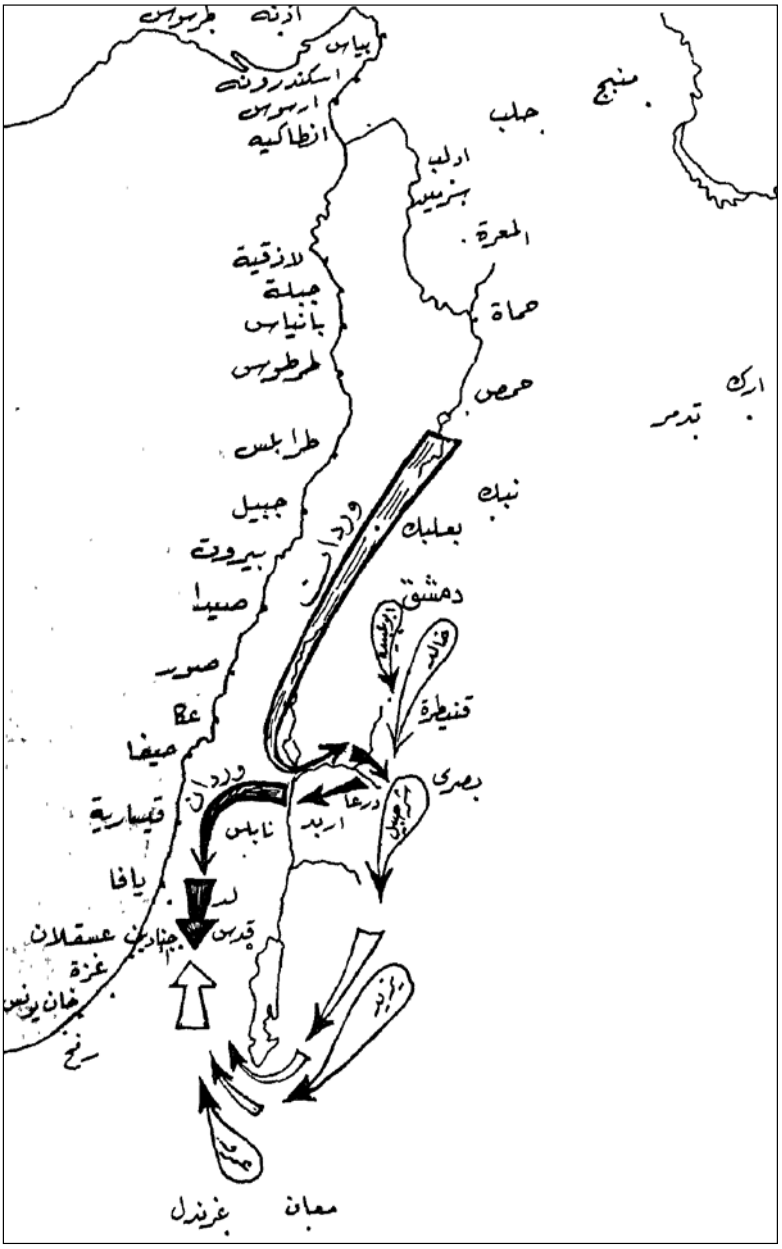

المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)**، ص 271.

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

وفي **مرج الصُفَّر** إلى الجنوب من دمشق بنحو 38 كم التقى المسلمون بقوات الروم وهزموها في 17 جمادى الثانية 13هـ – 18 آب/ أغسطس 634م، وجاءت البشارة لأبي بكر الصديق بهذا النصر وهو في الرمق الأخير؛ إذ توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مساء الثلاثاء 21 جمادى الثانية 13هـ – 23 آب/ أغسطس 634م.[62]

سادساً: عزل خالد:

تولى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة بعد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأمر بعزل خالد عن قيادة جيوش الشام، وأرسل إلى أبي عبيدة قرابة 26 جمادى الثانية 13هـ – 28 آب/ أغسطس 634م يوليه مكان خالد، ولعل الخبر وصل إلى أبي عبيدة بعد نحو أسبوع، وجاء في كتاب عمر إلى أبي عبيدة:

> فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي، فإن الله لا يستحي من الحق، وإني أوصيك بتقوى الله الذي أخرجك من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى، وقد استعملتك على جند خالد فاقبض جنده واعزله عن إمارته، ولا تقد المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنفذ سرية إلى جمع كثير، وغضّ عن الدنيا عينيك وألْهِ قلبك، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم، وإن بينك وبين الآخرة ستر الخمار وكأني بك منتظراً سفراً من دار قد مضت نضارتها، وذهبت زهرتها، وأحزم الناس من يكون زاده التقوى.... .[63]

هذه كتب التعيين في زمن الصحابة!! أمر واضح محدد، وحرص ورحمة بالجند المؤمنين، ودعوة إلى تعليق القلب بالآخرة والتزود بالتقوى، واتساق متوازن بين التكليف والعمل والعبادة.

ولسنا بصدد مناقشة عزل خالد، ولكننا نقف لحظة أمام مشهد لأولئك الصحابة العظام الذين فتحوا أرض فلسطين. فقد علم خالد بأمر عزله دون أن يخبره أبو عبيدة، وكان خالد ما يزال يتصرف كأمير، وأبو عبيدة يصلي خلفه...، فعاتبه خالد عتاباً رقيقاً لِمَ لم يخبره والسلطان سلطانه... فكان مما رد عليه أبو عبيدة:

> وما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل... وإنما نحن أخوان قوامان بأمر الله عز وجل، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه، بل يعلم الوالي أنه يكاد يكون أدناهما إلى الفتنة، وأوقعهما في الخطيئة لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم.[64]

إن من أهم مزايا التربية الإسلامية، التي تنعكس إيجابياً على نجاح الحل الجهادي الإسلامي، تجاوز المسائل المتعلقة بهوى وحظوظ النفس، وتعليق القلب والعمل بالآخرة، وبالتالي تضييق هامش التنازع والصراع على المناصب والألقاب، والتنافس في ميدان البذل والعطاء، وبهذا تتحقق بركة العمل، ويتم الإنجاز في أفضل الظروف النفسية. وأن أصحاب التجارب الإسلامية المعاصرة مطالبون، على مستوى القيادة قبل مستوى الأفراد، أن يكونوا النموذج والقدوة في هذا الإطار، ولو استرشد المجاهدون بصدق بمقولة أبي عبيدة لتجاوزوا مشاكلهم، وهزموا أعداءهم، ولأعادوا للإسلام عزته ودولته ونهضته.

سابعاً: معركة فحل - بيسان:

تعدّ معركة فحل – بيسان من أبرز المعارك التي خاضها المسلمون في فتحهم لبلاد الشام، وقد وقعت هذه المعركة على ضفاف نهر الأردن، فقد عسكر المسلمون في فحل شرقي نهر الأردن، وعسكر الروم عند بيسان غربي نهر الأردن (إلى الشمال الغربي من فحل)، غير أن ميدان المعركة كان في فلسطين المعروفة بحدودها الحالية إلى الجنوب من بيسان، وكان عدد الروم 50 ألفاً وقيل 80 ألفاً، أما المسلمون فكانوا 26 ألفاً تقريباً، ولا يصل عددهم إلى 30 ألفاً.[65]

وقبيل المعركة أرسل الروم إلى أبي عبيدة أن "اخرج أنت ومن معك من أصحابك وأهل دينك من بلادنا التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب والثمار، فلستم لها بأهل، وارجعوا إلى بلادكم، بلاد البؤس والشقاء، وإلا أتيناكم فيما لا قِبل لكم به، ثم لم ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف".[66]

فردّ عليهم أبو عبيدة:

> أما قولكم: اخرجوا من بلادنا فلستم لها ولما تنبت بأهل، فلعمري ما كنا لنخرج منه وقد أذلكم الله بما فيها وأورثناها، ونزعها من أيديكم وصيّرها لنا، وإنما البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، والله مالك الملك يؤتي ملكه من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء...، فلا تحسبونا تاركيها ولا منصرفين عنها حتى نفنيكم ونخرجكم عنها، فأقيموا فوالله لا نجشمكم إن أنتم لم تأتونا أن نأتيكم، وإن أنتم أقمتم لنا فلا نبرح حتى نبيد خضراءكم، ونستأصل شأفتكم إن شاء الله.[67]

هكذا كان جواب القيادة المسلمة: عزة وكرامة واستعلاء، مقرون بفهم عميق لطبيعة الرسالة الإسلامية وحركة التاريخ اختصر بخمس كلمات فقط "فلستم لها ولما تنبت بأهل"، وحرب نفسية ردّت على التهديد بتهديد أقوى، وأكدت الإصرار على الفتح ونشر الرسالة.

ثم إن الروم طلبوا رجلاً يفاوضونه فأرسل أبو عبيدة معاذ بن جبل إليهم، فأقبل عليهم فإذا هم على فرش ووسائد في أبهة وفخامة تغشي الأبصار، فأبى معاذ أن يجلس على البسط مع رؤسائهم... وجلس إلى جانبها على الأرض، فقالوا له: "لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك...، إن جلوسك على الأرض منتحياً صنيع العبد بنفسه فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك"، فقال معاذ لهم إن هذه المكرمة التي يدعونه إليها قد استأثروا بها على ضعفائهم... "ولا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها، ولا في شيء يباعدنا عن ربنا"، وردّ على قولهم إنه صنع صنيع العبد "أنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله، ولا أستأثر بشيء من الله على إخواني من أولياء الله...، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير ذلك...".

وحاول الروم إبراز قوتهم لمعاذ قائلين: "إن ملكنا حي، وإن جنودنا عظيمة كثيرة...، ونحن عدد نجوم السماء وحصى الأرض"، وسألوه عما يطلبه المسلمون، فدعاهم معاذ إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب، وردّ عليهم قائلاً: "وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا، وأميرنا رجل منا إن عمل فينا بكتاب الله وسنّة نبينا ﷺ أقررناه علينا، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا، وإن هو سرق قطعنا يده، وإن زنى جلدناه، وإن شتم رجلاً منا شتمه كما شتمه، وإن جرحه أقاده من نفسه، ولا يحتجب منا ولا يتكبر علينا، ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاءه الله علينا، وهو كرجل منا"... "وأما قولكم: جنودنا كثيرة فإنها إن عظمت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض، فإنا لا نثق بها ولا نتكل عليها ولا نرجو النصر على عدونا بها، ولكنا نتبرأ من الحول والقوة، ونتوكل على الله عز وجل ونثق بربنا...، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها وغلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها".

فعرض الروم على معاذ أن يعطوا المسلمين البلقاء وما إلى أرض العرب من سواد الأردن، ودعوهم إلى قتال أهل فارس ووعدوهم بالمساعدة. فقال معاذ: "هذا الذي عرضتم

علينا وتعطونا كله في أيدينا، ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وضعت لكم ما فعلنا"، فغضبوا منه وقالوا: "نتقرب إليك وتتباعد عنا؟ اذهب إلى أصحابك فوالله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً"، فقال معاذ: "أما الجبال فلا، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون".[68]

معركة فحل – بيسان

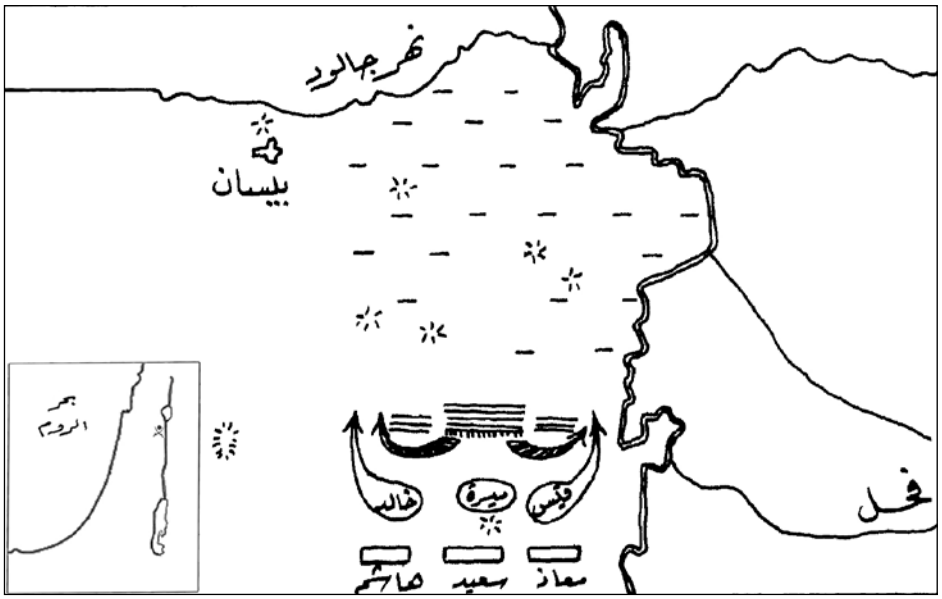

المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)**، ص 338.

وإذا كان لنا من وقفة هنا مع هذا المشهد التفاوضي الزاخر، فلعلنا نختار الإشارة السريعة إلى النقاط التالية:

- يعاني الكثير من زعمائنا ومفاوضينا في هذا العصر من عقدة النقص تجاه الآخرين، ومن ضعف الثقة بأنفسهم أو قضيتهم، ويحاولون التعويض عن ذلك بتقليد الآخرين "الخصوم" في اللباس والوجاهة والمظاهر، فتكون هذه أول نقاط الانهزام لديهم.
- عندما حاول الروم أن يزروا بسلوك معاذ بن جبل الشخصي، استخدم ذلك في الردّ عليهم بتأكيد معاني الرسالة الإسلامية من عبودية الله، وعدم الاهتمام بزخرف الدنيا، وكذلك في كشف عيوب سلوكهم الاجتماعي – القيادي من ظلم وأنانية واستعلاء على الضعفاء، فكان رده الأقوى؛ لأنه استعلى عليهم بإيمانه وسلوكه ومنهجه.

- وعندما هددوه بملكهم وأعدادهم، ردّ الملك إلى الله سبحانه، ثم طعن في أسلوبهم القيادي واستعلاء ملوكهم بغير حق، مشيراً إلى منهجية وطبيعة القيادة الإسلامية، بحيث يتمنى الروم أن يعاملوا أميرهم كما يعامل المسلمون أمراءهم، كما ردّ على مسألة العدد بإرجاع الأمر إلى الله الذي بيده كل شيء.
- كل ذلك في قالب من العزة والقوة والتواضع، وإصرار على الدعوة إلى إحدى الخصال الثلاثة، ورد التهديد بما هو أقوى وأوقع في النفس.

ترى ما هو شعور المسلم عندما يقرأ هذا الموقف للصحابة الذين فتحوا فلسطين، وبين أولئك الذين يساومون عليها الآن في عصرنا (غزة – أريحا...؟!).

ويبعث الروم رجلاً منهم إلى أبي عبيدة ليفاوضه، ويتكرر موقف شبيه لما حدث مع معاذ؛ إذ إن الرجل لما دنا من المسلمين لم يعرف الأمير!! فسأل عنه، فقالوا: ها هو ذا!! فنظر إذا هو بأبي عبيدة جالس على الأرض، وهو منتكب القوس، وفي يده أسهم وهو يقلبها، فتعجب منه وسأله لم يجلس على الأرض؟ فكان مما قاله أبو عبيدة: "ما أصبحت أملك ديناراً ولا درهماً، وما أملك إلا فرسي وسلاحي وسيفي... ولو كان عندي بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون إخواني وأصحابي..."، فعرض الرومي على أبي عبيدة أن يعطي كل مقاتل مسلم دينارين وثوباً ويعطي أبا عبيدة ألف دينار، ويعطي الخليفة عمر ألفين، ويعطي المسلمين أرض البلقاء وسواد الأردن على أن يرجعوا وتكتب بذلك المواثيق، فرفض أبو عبيدة وقال: إن الله أمرهم أن يعرضوا على العدو إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب.... فانصرف الرومي.[69] كان على الروم أن يدركوا أن المسلمين أصحاب رسالة، وأنهم لا يبيعون رسالتهم بعرَضٍ من الدنيا، وهو درس أيضاً لأولئك المؤرخين الذين يتشدقون بالدافع الاقتصادي وعوامل الجوع والعطش التي يزعمون أنها دفعت المسلمين للقيام بحركة الفتح الإسلامي.

كان قائد الروم في المعركة هو سَقِلار بن مخراق، وقائد المسلمين أبو عبيدة، وفي الثلث الأخير من ليلة الإثنين 28 ذي القعدة 13هـ – 23 كانون الثاني/ يناير 635م تمَّت تعبئة المسلمين وترتيبهم، وصلّوا الفجر، وجعل أبو عبيدة على الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة هاشم بن عتبة، وعلى المشاة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعلى الخيل خالد بن الوليد، وعبر بهم النهر باتجاه الروم.[70]

أما الروم فظنوا أن المسلمين في فحل لا يتوقعون عبورهم إليهم، وقدر قائدهم أنه إذا جاءهم وجدهم نياماً فيفاجئهم، فسار بجيشه نحو فحل.[71]

وفي الصباح بدأت المعركة، وكان القتال فيها أشد قتال اقتتلوه قط، وقتل خالد بن الوليد بنفسه 11 رجلاً من أشدائهم وبطارقتهم، وانتصر المسلمون، وقيل إن 80 ألفاً أصيبوا لم يفلت منهم إلا الشريد،[72] وذكر البلاذري أن قتلى الروم كانوا نحو 10 آلاف.[73]

وبهذه المعركة غلب المسلمون على أرض الأردن وأصابوا من ريفه أفضل ما ترك الروم فأصبحت أقواتهم ومادتهم موفورة، وأخذ الروم ينتقلون إلى الحصون، وأصابهم الرعب مما أصابهم فلجأ الكثير من فرسانهم وأغنيائهم إلى قيسارية والقدس.[74]

الاتجاه شمالاً:

وعلى الرغم من أن المسلمين هزموا الروم هزيمتين كبيرتين على أرض فلسطين، إحداهما في الجنوب "أجنادين" والأخرى في الشمال "فحل – بيسان"، إلا أنهم لم يتابعوا طريقهم لفتح باقي فلسطين، وإنما اتجهوا شمالاً، فحاصروا دمشق أربعة أشهر حتى فتحوها يوم الأحد 15 رجب 14هـ – 3 أيلول/ سبتمبر 635م، ثم فتحوا بعلبك صلحاً أواخر ربيع الأول 15هـ – أوائل أيار/ مايو 636م، ثم فتحوا حمص صلحاً بعد حصار استمر 18 ليلة في 21 ربيع الثاني 15هـ – أول حزيران/ يونيو 636م، وأرسل أبو عبيدة بعدها طلائع جنده إلى حلب، وإلى جهة الجزيرة، ولكن عمر بن الخطاب طلب منه أن يضم أجناده ويتوقف. ففي تلك الفترة كانت تجري الاستعدادات الكبرى لمعركة القادسية بين المسلمين والفرس، ثم إن الروم كانوا يعدّون لمعركة حاسمة فاصلة، ولذلك دعا أبو عبيدة خالداً فبعثه إلى دمشق ليقيم بها في ألف من المسلمين، كما كلَّف عمرو بن العاص، أن يقيم بجيشه في فلسطين.[75]

ثامناً: معركة اليرموك:

كان هرقل خلال الهزائم السابقة المتكررة ما يزال مقيماً في أنطاكية يحشد قواته ويبعثها للقتال، ويبدو أنه عند سقوط دمشق، وربما قبلها، أراد أن يحشد حشداً ضخماً بأكبر قوة يستطيعها ليدخل بها معركة فاصلة. وقد اختلفت الروايات في أعداد الروم،

وذكر الرواة أنه أقبلت من الجموع ما لا تحمله الأرض، ووصفهم الأزدي قائلاً: "فطبقوا الأرض مثل الليل والسيل كأنهم الجراد السود"،[76] أما تقديرات الرواة لأعدادهم فتراوحت بين 100–400 ألف، ولعل الأقرب للصحة أنهم كانوا 200 ألف بقيادة باهان Vahan، أما عدد المسلمين فكان 36 ألفاً منهم ألف من الصحابة رضوان الله عليهم فيهم نحو مئة ممن شهدوا بدراً.[77]

ولما بلغت أبا عبيدة أخبار جموع الروم الهائلة، وكان المسلمون قد ساحوا في أرض الشام، قررت قيادة جيش المسلمين أن يتنحوا جانباً وينسحبوا من حمص، وردوا لأهلها جزيتهم؛ لأنهم غير قادرين على حمايتهم.[78] وعلى الرغم من أن عمر بن الخطاب كره هذا الرأي إلا أنه رضي لإجماعهم عليه، وأمدهم بقوة عليها سعيد بن عامر وأوصى سعيداً: "إني قد وليتك على هذا الجيش ولست بخير رجل منهم إلا أن تكون أتقى لله منه، فلا تشتم أعراضهم ولا تضرب أبشارهم، ولا تحقر ضعيفهم، ولا تؤثر قويهم، وكن للحق تابعاً، ولا تتبع هوى شاذاً..."،[79] وهكذا فإن علاقة القيادة بالأفراد في الجيش الإسلامي علاقة متميزة تقوم على احترام إنسانيتهم، ومراعاة مشاعرهم، والمساواة والعدل بينهم لا كما يحدث في بعض الجيوش؛ حيث يتفنن أصحاب كل رتبة في إذلال من دونهم بحجة الانضباط، فتقوم علاقة مبنية على الكراهية والخوف لا على الحب والاقتناع والولاء.

ورجع أبو عبيدة إلى دمشق، ورد المسلمون على أهلها ما جُبي منهم،[80] وكان رأي المسلمين أن يتجمعوا لعدوهم وينتظروا قدوم الإمدادات لهم...، فخرج المسلمون باتجاه الأردن، وزحف جيش الروم، وانضم إليهم النصارى في المناطق التي في طريقهم...، وتجرأوا على المسلمين.[81] وأرسل أبو عبيدة إلى عمر أن "الروم قد نفرت إلى المسلمين براً وبحراً، ولم يخلفوا ورائهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وأخرجوا معهم القسيسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة..." وأخبره رأي المسلمين بالتنحي والتجمع حتى يأتي المدد... وقال "فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال، وإلا فاحتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ودينهم منهم إن هم تفرقوا، فقد جاءهم ما لا قِبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياث من قبله، والسلام عليك".[82]

ولما وصل كتاب أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب دعا المهاجرين والأنصار فقرأه عليهم، فبكوا بكاء شديداً وأشفقوا على إخوانهم، ولم يكن هناك مجال لإرسال غوث ومدد للمسلمين لقرب الروم منهم، فأرسل عمر يثبتهم ويشدّ من أزرهم، ويؤكد لهم في هذا الجو العصيب المعاني الإسلامية بما تحمله من إيمان وثقة بالله وموازين الصراع بين الحق والباطل... ومما جاء فيها "... فلا تهولنك كثرة ما جاء منهم فإن الله منهم بريء، ومن برئ الله منه كان قمناً [جديراً] ألا تنفعه كثرة، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذله، ولا توحشك قلة المسلمين، فإن الله معك، وليس قليلاً من كان الله معه. فأقم بمكانك الذي أنت فيه حتى تلقى عدوك وتناجزهم وتستظهر الله عليهم، وكفى به ظهيراً ووليا ونصيراً..." "ولعمري إن أقام لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا لما عند الله خير للأبرار"... ومما جاء في كتاب عمر لأبي عبيدة أيضاً:

> فأما قولك إنه قد جاءهم ما لا قبل لهم به، فإن لا يكن لكم بهم قبل فإن لله بهم قبلاً، ولم يزل ربنا عليهم مقتدراً، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ما قد أبادونا وأهلكونا، ولكن نتوكل على الله ربنا ونبرأ إليه من الحول والقوة ونسأله النصر والرحمة، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال، فأخلصوا لله نياتكم، وارفعوا إليه رغبتكم، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون.[83]

وأوصاه عمر أن يقرأ كتابه على الناس.[84]

وجاء الرسول بكتاب عمر يوم دخل سعيد بن عامر الجمحي بألف من المسلمين مدداً من قبل عمر في معسكر المسلمين باليرموك، واستبشر المسلمون بالمدد، كما استبشروا برأي عمر.[85]

كانت جيوش المسلمين قد اجتمعت بالجابية قبل أن تتجه إلى اليرموك، وفي الجابية اجتمع قادة المسلمين وتداولوا الأمر فكان رأي بعضهم الانسحاب جنوباً إلى أطراف الصحراء، أما خالد بن الوليد فقال: "أرى والله إن كنا نقاتل بالكثرة والقوة فإنهم أكثر منا وأقوى منا وما لنا بهم إذن طاقة، وإن كنا نقاتلهم بالله ولله، فما أرى جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً أنها تغني عنهم شيئاً".[86]

كان قادة المسلمين يدركون خطورة الموقف، ويستشعرون عظم المسؤولية، وفي هذا الموقف الذي تتزلزل فيه الأقدام، ويهرب منه عشاق المناصب تقدم خالد بن الوليد وقال لأبي عبيدة: "أتطيعني أنت فيما آمرك به؟" قال أبو عبيدة، أمين هذه الأمة، وكله ثقة

بخالد: نعم، فقال خالد: "فولني ما وراء بابك وخلني والقوم فإني لأرجو الله أن ينصرني عليهم"، قال أبو عبيدة "قد فعلت".[87]

وهكذا فوّض أبو عبيدة خالداً بالقيادة الميدانية، بينما احتفظ لنفسه، كما يظهر، بالقيادة العليا الرسمية للجيش. وظلّ خالد متأدباً مع أبي عبيدة فاستشاره في قيادة الميمنة فرشح أبو عبيدة معاذاً فوافق خالد، وقال فولّها له، فولاها له أبو عبيدة، ورشح خالد قُباث بن أشيم على الميسرة، فأمره أبو عبيدة بذلك، وقال خالد: وأنا على الخيل، وولِّ على الرجالة (المشاة) من شئت، فاختار أبو عبيدة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فوافق خالد، فأمر أبو عبيدة بذلك. ثم إن أبا عبيدة أرسل، بطلب من خالد، إلى أهل كل راية أن يطيعوا خالداً، ونقل الأمر الضحاك بن قيس، فسار على الناس وهو يقول: "إن أميركم أبا عبيدة، يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما يأمركم به".[88]

انسحب المسلمون من الجابية إلى أذرعات؛ حيث نزلوا خلف نهر اليرموك وجعلوا أذرعات خلفهم، ونزل الروم بين اليرموك ووادي الرقاد "الواقوصة" (وهو نهر الرقاد من جهة التقائه باليرموك) فحُصروا من ثلاث جهات. وتحرك المسلمون من أذرعات وعسكروا مقابل الروم الذين لم يعد لهم طريق إلا على المسلمين.[89]

كان المسلمون، في المعارك السابقة، يقاتلون متساندين أي أن كل جيش وحدة مستقلة بذاتها تتعاون مع الجيوش الأخرى، وكان رأي خالد بن الوليد مزجها جيشاً واحداً، وإعادة تنظيمها بوحدات متناسقة على شكل كراديس، فاجتمع بأمراء الجيش واقترح لهم ذلك، وكان مما قاله: "إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم فإن هذا اليوم له ما بعده"... "فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند، ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ...."، وهكذا عالج خالد مسألة الإمارة الحساسة بصراحة ووضوح، وسد على النفوس منافذ الشيطان وسوء الظن، وتمت الاستجابة بسلاسة ويسر، وأعيد الترتيب بحيث يظهر كما يرى أحمد كمال أن أمراء الجيوش كانوا هيئة إدارة عليا للميدان بدليل وجود أسماء أخرى لقيادات الميمنة والميسرة والمشاة.[90]

معركة اليرموك

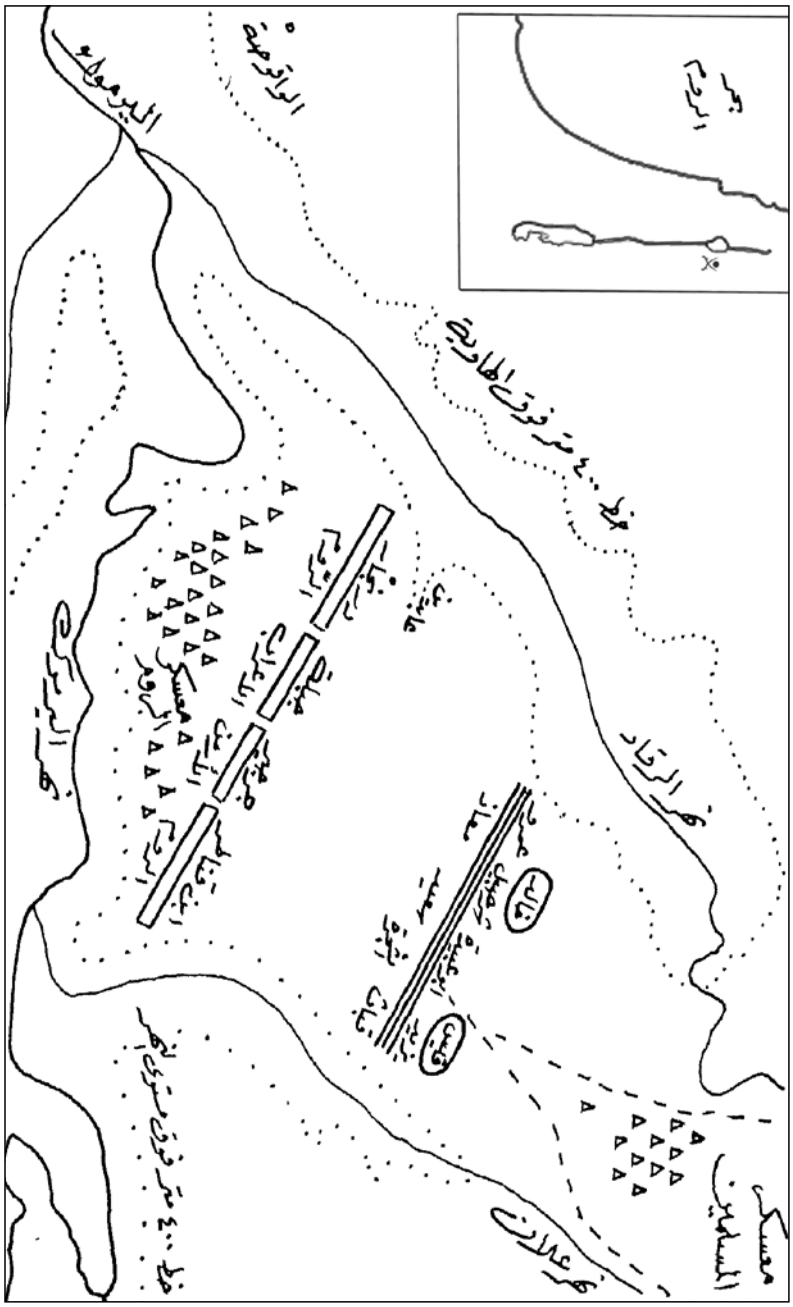

المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)**، ص 477.

وقبيل المعركة دعا باهان قائد الروم خالداً للتباحث، وفي المفاوضات التي جرت بينهما تحدث باهان عن قوة أمته ومَنَعتها ساخراً من ضعف ورقَّة حال العرب، وعرض عليه أن يعطي الأمير عشرة آلاف دينار، وأن يأخذ خالد عشرة آلاف، وكل رئيس ألف دينار، ولكل فرد مئة دينار!! وهكذا تتكرر مرة أخرى لدى الروم تلك العقلية المساومة التي تربط حركة الحياة بالمادة والمصلحة، ولم تستوعب أصول الرسالة الإسلامية وسموها ودوافع حركتها الجهادية النبيلة. ويرد خالد على طرح وعرض باهان فيؤكد له ما ذكره مما كان عليه العرب من فقر وضعف وفرقة وصراع ويبين له أن الذي استجد عليهم ليس الفقر والجوع، وإنما "خروج النبي ﷺ برسالة الإسلام وأمره لهم بقتال من اتخذ مع الله آلهة أخرى...."، وعرض خالد على باهان إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال.[91]

ودعا الدرنجار قائد ميسرة الروم رجلاً من نصارى العرب، وأمره أن يذهب ليتجسس على المسلمين فذهب ومكث في معسكرهم ليلة حتى أصبح، فأقام عامة يومه، ثم عاد إلى الدرنجار فقال له: "جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل أسد بالنهار، لو يسرق ملكهم لقطعوا يده، ولو زنى لرجموه لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى" فقال درنجار: "لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، وكما ذكرت لبطن الأرض خير –لمن يريد قتالهم– من ظهرها".[92] هذا الوصف، هو الوصف الحقيقي لأي جيش مسلم يرفع راية الحل الإسلامي لتحرير الأرض المباركة، واستعادتها من أيدي الأعداء.

وفي يوم الإثنين 5 رجب 15هـ – 12 آب/ أغسطس 636م وقعت معركة اليرموك، ووضع باهان على ميمنته ابن قناطر، وعلى ميسرته الدرنجار، ومعه جرجير في جند أرمينية، وجبلة بن الأيهم الغساني على الأعراب الموالين للروم، وعددهم 12 ألفاً من قبائل لخم وجذام وبلقين وعاملة من قضاعة وغسان.[93]

وزحف الروم على المسلمين مثل "الليل والسيل" وكانوا نحو 120 ألفاً من المشاة، و80 ألفاً من الفرسان. وأخذ قادة المسلمين يحثون الجنود على الصبر والجهاد، وسار أبو عبيدة في المسلمين فقال "يا عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم فإن وعد الله حق، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة

للعار، فلا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا [بالدُّرق] والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى آمركم إن شاء الله".[94]

وكذا فعل معاذ بن جبل، وعمرو بن العاص الذي كان مما قاله: "فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويعاقب عليه، ويجزي بالإحسان، لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشدة لقد انذعروا انذعار أولاد الحجل".[95]

وهكذا فعل أبو سفيان بن حرب، وجاءت نساء المسلمين فوقفن على مرتفع خلف الصفوف فرجع إليهنَّ أبو سفيان وأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهن، وقال لهن: "لا يرجع أحد من المسلمين إلا رميتنَّه بهذه الحجارة".[96]

وزحف الروم، وقد رفعوا الصلبان، وأقبلوا معهم الرهبان والقسيسون والبطارقة، وتبايع عظماؤهم على الموت، ودخل 30 ألفاً منهم بالسلاسل، كل عشرة في سلسلة حتى لا يفروا.[97]

ورجع خالد إلى نساء المسلمين فأمرهن أن يقتلن أي رجل أقبل إليهنَّ منهزماً من المسلمين، ونظم خالد الجيش بحيث كان الفرسان خلف المشاة، وبحيث ينكسر الهجوم الرومي أمام المشاة، وعندما يفقد الروم نظامهم يهاجمهم خالد بفرسانه وهي مرتاحة.[98]

وبدأ الهجوم الرومي على ميمنة المسلمين ثم الميسرة، وحدث التحام هائل، وأمام سيل الروم الجارف انكشف المسلمون في الميمنة والميسرة، لكن المسلمين صمدوا في القتال بين مد وجزر.[99] وكان أشد القتال في الميمنة؛ حيث الأزد قوم أبي هريرة الذي أخذ يحمس المسلمين هناك، ويقول "تزينوا للحور العين، وارغبوا إلى جوار ربكم عز وجل في جنات النعيم، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم".[100] وهكذا فمن يتمعن في أقوال قادة المسلمين والصحابة في المعركة (أبي عبيدة، ومعاذ، وعمرو، وأبي هريرة...) لا يرى حثاً على الدنيا ولا وعوداً بالمغانم والمناصب، وإنما دعوات للإخلاص والصبر والذكر، وثقة بوعد الله ونصره، ورغبة في الشهادة والجنة.

وعندما حدث الاختراق الرومي للميمنة والميسرة، وثبت القلب، تدفقت قوات الروم نحو معسكر المسلمين بالخلف، وظلت هناك صفوف المسلمين تقاوم، ويعود إليها من جديد من كانت الروم قد اجتاحته.

وفي هذا الجو العصيب، قال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفر منه اليوم؟! من يبايع على الموت؟! فبايعه 400 من وجوه المسلمين وفرسانهم فيهم الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فاستبسلوا أمام فسطاط خالد بن الوليد، حتى أصيبوا جميعاً بجراح خطيرة فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من برئ مثل ضرار بن الأزور.[101] وقاتلت نساء المسلمين في هذا اليوم قتالاً شديداً كخولة بنت الأزور، وأم حكيم ابنة حكيم بن الحرث، وسلمى بنت لؤي، وأسماء بنت أبي بكر...، كما قامت نساء المسلمين بمداواة الجرحى وسقاية الماء.[102]

كان خالد بن الوليد في نصف فرسان المسلمين وقيس بن هبيرة في النصف الثاني لم يقاتلوا حتى تلك اللحظة، وعندما تكسرت صفوف الروم زحف خالد في فرسانه إلى الروم، وقد أنهكهم التعب واختلت صفوفهم. أما فرسان الروم الذين سبقوا المشاة إلى معسكر المسلمين فقد انقطعت أخبارهم، ويبدو أنهم استمروا في طريقهم هرباً من المعركة والحصار وعددهم نحو 30 ألف فارس، ولما رأى المسلمون خيل الروم كذلك فتحوا لها مهرباً فذهبت في حالة من الفوضى، وشدَّ خالد بفرسانه على المشاة وقتل 6 آلاف وقيل 10 آلاف،[103] وقيل إنه تكسرت في يد خالد تسعة أسياف.[104]

وأخذ المسلمون يزحفون مع هجوم خالد وقيس... وتراجع الروم وقد سدَّ المسلمون عليهم المنافذ...، واندفعوا متراجعين إلى الواقوصة، وكانت حافته مرتفعة فتهاووا فيها، إذ كان الجو ضباباً، وقيل كان ليلاً وهو الأرجح؛ حيث قتل منهم في هذه الهاوية نحو 80 ألفاً، وقتل في المعركة 50 ألفاً، واستطاع الفرار تحت جنح الليل نحو 40 ألفاً، بينما كان قد هرب نحو 30 ألف فارس.[105] أما المسلمون فقد استشهد منهم نحو 3 آلاف.[106]

استعادة الشام:

وبانتهاء معركة اليرموك التي تعدّ إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ انكسرت شوكة الروم في الشام، وأصبح فتحها أكثر سهولة ويسراً على المسلمين. وقد استفاد

المسلمون من هذه الفرصة، فقام خالد بسرعة كبيرة بمطاردة الروم واستعادة الشام حتى حمص.[107] وعادت القيادة المباشرة على الجيوش لأبي عبيدة بن الجراح الذي انتقل معسكره إلى مرج الصُفَّر ومنها إلى دمشق.[108]

وفي أواخر آب/ أغسطس 636م جاء أمر عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بإعادة الجيش، الذي جاء مدداً من العراق مع خالد بن الوليد، فعاد إلى العراق ستة آلاف؛ ليدركوا معركة القادسية التي وقعت بعد اليرموك بأربعين يوماً.[109]

وفي دمشق قسّم أبو عبيدة الشام على الأمراء؛ فاستخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وعمرو بن العاص على فلسطين، وشرحبيل بن حسنة على الأردن، ومضى أبو عبيدة إلى حمص. ومن دمشق خرج يزيد، وفي مقدمته معاوية بن أبي سفيان ففتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وكان فتحاً يسيراً. أما شرحبيل ففتح باقي الأردن بيسر... ففتح سوسية، وأفيق، وجرش، وبيت راس، وقَدَس، والجولان، وذلك في النصف الثاني من 15هـ.[110]

تاسعاً: فتح فلسطين:

وانفتح الطريق بعد اليرموك إلى فلسطين، فاتجه عمرو بن العاص إليها، ففتح سبسطية ونابلس، ثم اللد ونواحيها، ثم يبنه وعمواس وبيت جبرين، ثم هبط باتجاه الجنوب الغربي حتى فتح رفح، وفي رواية حتى أنه فتح يافا، وفي قول آخر أن معاوية هو الذي فتحها. ثم فتح عمرو عسقلان ثم انتقض أهلها فأعاد معاوية فتحها في ولايته.[111] وذكر صاحب فتوح البلدان أن عمرو بن العاص فتح غزة على عهد أبي بكر.[112]

وهكذا فتحت فلسطين، ولم يبقَ إلا قيسارية وبيت المقدس، أما بيت المقدس فقد فتحت على الأرجح في ربيع الثاني 16هـ – أيار/ مايو 637م. فقد اتجه عمرو بن العاص إلى القدس بعد أن أصبحت جيباً معزولاً وحاصرها، وبعد أن فرغ أبو عبيدة من تطهير شمال الشام (حلب، أنطاكية...) سار إلى عمرو وتولى الحصار بنفسه.

وكتب أهل القدس إلى أبي عبيدة يطلبون الصلح على مثل ما صالحت عليه مدن الشام، غير أنهم اشترطوا أن يتولى العقد عمر بن الخطاب... .

فتح فلسطين

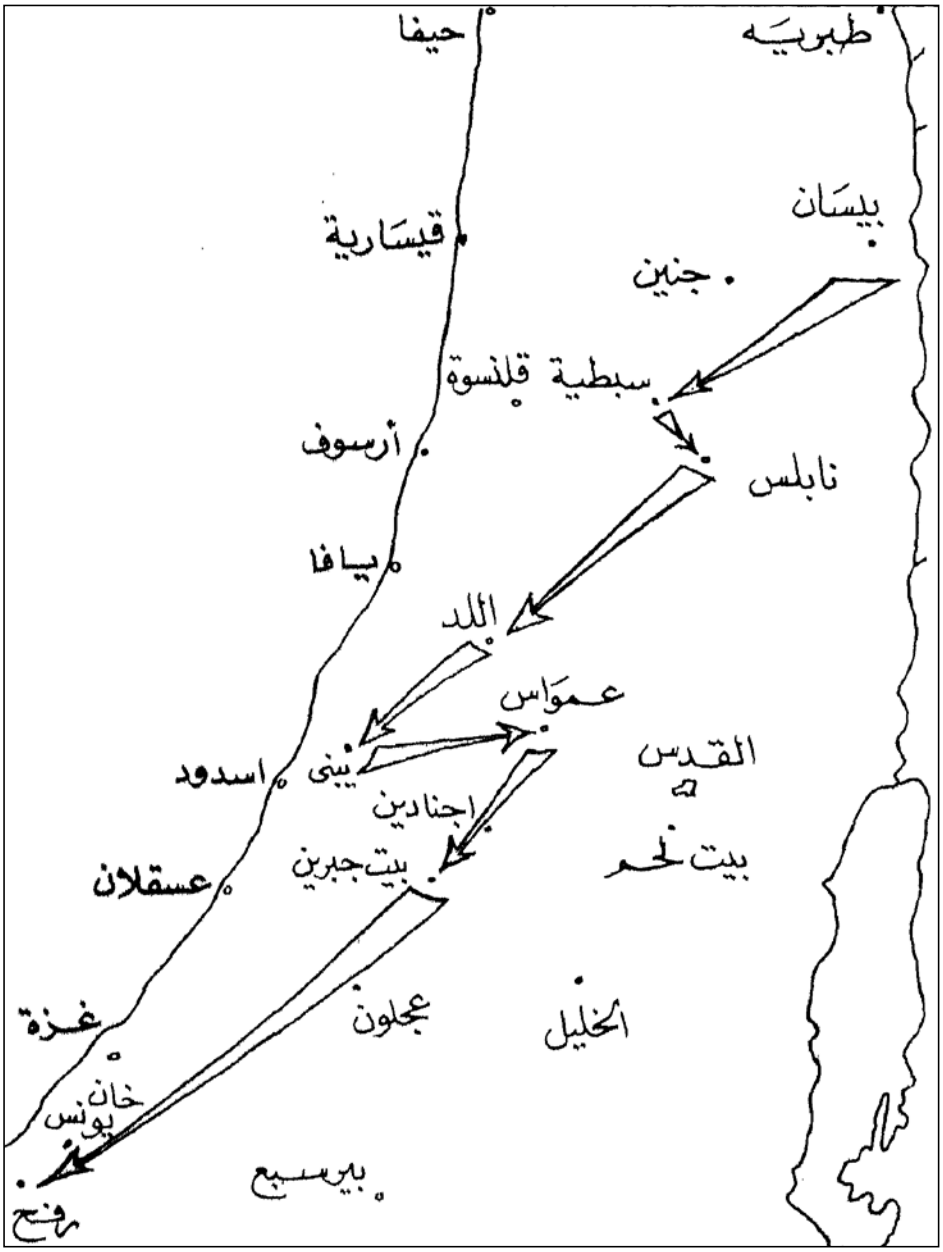

المصدر: أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)**، ص 514.

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

استخلف عمر بن الخطاب عليَّ بن أبي طالب على المدينة، وسار إلى الشام؛ حيث وافاه أمراء جيوش المسلمين في الجابية. ومع قدوم عمر هرب قائد الروم (أرطبون) من القدس، فكان الذي صالح عن أهل فلسطين رجل من أهل إيلياء (القدس) والرملة يدعى العوَّام. وقد صالح عمر أهل القدس وهو بالجابية وكتب لهم هناك الصلح.[113] وقد جاء في نصه:

> بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.
>
> وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وله مثل ما على أهل إيلياء من الجزية... .
>
> وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.
>
> شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر 15هـ.[114]

وهذا النص هو ما يعرف **بالعهدة العمرية**، وعلى أساسه فتحت القدس، وهو يعكس مدى التسامح الديني الذي تمتع به المسلمون؛ بحيث أصبح نموذجاً يحتذى في وقت كان التعصب الأعمى والإكراه على الدِّين يعمّ العالم.

وقبل أن نسرد دخول عمر إلى القدس نقف لحظات مع ذلك الجيل الرباني الذي فتح الأرض، وحطم القوى الكبرى في ذلك الزمان. نقف مع الخليفة القائد الزاهد عمر لنستلهم من سلوكه بعض المعايير التي يحتاجها أولئك الذين يتصدَّرون العمل الإسلامي، ويتحملون أمانة وتبعات الجهاد والتحرير. فقد روى ابن أبي الدنيا عن أبي الغالية الشامي أن عمر قدم إلى الجابية "على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب....، وعليه قميص من كرابيس* قد رَسم وتخرَّق جنبه....، فنزع قميصه وغسل ورقع"، فقال له أحدهم:

* كرابيس: ثوب خشن غليظ.

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

"أنت ملك العرب وهذه البلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا، وركبت بردوناً لكان ذلك أعظم في أعين الروم" فقال عمر: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً".[115]

ونقل ابن كثير عن طارق بن شهاب قال:

> لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره ونزع موقيه [حذاءه] فأمسكهما بيده، وخاض الماء ومعه بعيره. فقال أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصكَّ في صدره وقال: أولو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله.[116]

وهنا نقف لنقول: إن الشعور الذاتي بالعزة والكرامة الناتجة عن الإيمان، وتجاوز عُقد النقص، والتأكيد على ما يبذله الإنسان من عمل لا على ما يظهر عليه من لباس أو نعيم، هي من أحوج الحاجات لقادة المسلمين وأفرادهم.

لقد وضع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في طريقه إلى القدس يده على القاعدة التي حكمت تاريخ المسلمين منذ فجر الدعوة وحتى عصرنا، وهي أن الله أعزّ المسلمين بالإسلام فمهما طلبوا العزّ بغيره أذلهم الله. وهي القاعدة التي أكدها رصيد التجربة، وهي القاعدة التي يستند إليها دعاة الحل الإسلامي لتحرير أرض الإسراء والمعراج.

رحمك الله يا عمر، كم من أناس وقادة يخجلون إذا لم يلبسوا البِذَل وربطات العنق، وإذا لم يلووا ألسنتهم ببعض الكلمات والمصطلحات الإنجليزية، ويخجلون أن يقوموا للصلاة إن حان وقتها،... ولكنهم لا يخجلون أن يفرِّطوا في أرض الإسراء والمعراج، وأن ينظروا للتسوية السلمية و"بركات" التطبيع...، كما لا يخجلون أن يتنكروا لتراث الأنبياء ودماء الشهداء!!

سار عمر من الجابية حتى وصل إلى القدس، وهو وغلامه يتبادلان الركوب على الجمل، ودخل عمر القدس وهو يمشي على قدميه وغلامه راكب!! ويذكر أنه شارك معه في فتح القدس أربعة آلاف من الصحابة، وهي المدينة الوحيدة التي استلم الخليفة عمر مفاتيحها بنفسه. وعندما دخل القدس صلى في محراب داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قارئاً سورة ص، حيث سجد سجدة داود، ثم قارئاً في الركعة الثانية سورة الإسراء، التي تحدثت فواتحها عن حادثة الإسراء ومباركة الله سبحانه لأرض فلسطين، ووعد الله سبحانه بظهور اليهود مرتين وانتصار المؤمنين عليهم.[117]

وسأل عمر عن مكان الصخرة المباركة التي كانت اختفت معالمها؛ لأنها اتُخذت مكاناً لإلقاء الأوساخ والقمامة من قبل سكانها النصارى، رداً على اليهود الذين اتخذوا مكان الشخص المصلوب بدل السيد المسيح (الذي شُبه للنصارى واليهود) مكاناً لإلقاء الأوساخ والقمامة، والذي أنشأت هيلانة Helena أم الإمبراطور قسطنطين في مكانه كنيسة "قمامة" التي عُرفت بعد ذلك بكنيسة "القيامة". وقد دلَّ كعب الأحبار عمر على المكان، فقام عمر بنفسه يشاركه الصحابة وأهل المنطقة بإزالة الأوساخ عنها وتنظيفها، ثم أمر عمر ببناء الحرم فبني من الخشب بما يتسع لنحو ثلاثة آلاف من المصلين.[118]

أما **قيسارية** فقد فتحها معاوية بن أبي سفيان في شوال 19هـ – تشرين الأول/ أكتوبر 639م، وبذلك تمّ للمسلمين فتح كل فلسطين. وقد كانت قيسارية مدينة عامرة ضخمة على البحر، ويبدو أن الروم أرادوا الاحتفاظ بها كموطئ قدم، وكان قد سبقت فتحها محاولات عدة لم يكتب لها النجاح. فقد كان أول من حاصرها عمرو بن العاص 13هـ، وكان يعود لمحاصرتها بعد أن يشارك في اجتماع الجيوش لمعارك أجنادين وفحل ومرج الصُفَّر واليرموك، وحاصرها بعد فتح القدس ثم خرج إلى مصر، فولى عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان، وأمره بغزوها فنهض إليها في 17 ألفاً وحاصرها، ومرِض آخر 18هـ فمضى لدمشق، واستخلف أخاه معاوية الذي تمّ له فتحها قسراً.

ويذكر البلاذري أن معاوية وجد فيها عندما فتحها 700 ألف من المرتزقة، ومن السامرة 30 ألفاً، ومن اليهود 200 ألف، و300 سوق، وكان يحرس سورها 100 ألف، وقيل إن قتلى الروم عند فتحها كانوا نحو 100 ألفٍ، وسبي 4 آلاف أرسلهم معاوية إلى عمر فأنزلهم الجرف.[119] غير أنه، على ما يبدو، فإن هناك مبالغة كبيرة في ذكر أعداد المرتزقة واليهود والأسواق، ولعلها في الحقيقة أقل من ذلك بكثير.

وظلّ عمر بن الخطاب في القدس بضعة أيام، وقبل أن يغادر خطب في المسلمين "يا أهل الإسلام، إن الله تعالى قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، وأورثكم البلاد، ومكَّن لكم في الأرض، فلا يكون جزاؤه منكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي، فإن العمل بالمعاصي كفر بالنعم، وقلما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفرغوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلط الله عليهم عدوهم".[120]

هذا ما قاله عمر، وهو الذي جعل الله الحق على لسانه، وهذه هي الحقيقة التي نعايشها اليوم، والتي عايشها المسلمون أيام الحروب الصليبية، كفر بالنعم وعمل بالمعاصي يتبعه سلب للعز وتسليط العدو على رقاب المسلمين.

عاشراً: الإسلام يترسخ في فلسطين:

وبعد الفتح الإسلامي لفلسطين أخذت هذه الأرض تكتسب من جديد هويتها الإسلامية؛ إذ دخل أهلها في الإسلام، وكان للصحابة الذين عاشوا فيها أثرهم في تعميق مفاهيمه ونشرها.

فمن الصحابة الذين استوطنوا في فلسطين عبادة بن الصامت (ت 34هـ) وهو من الخزرج، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان رضي الله عنه طويلاً جسيماً جميلاً.[121]

ومنهم أيضاً شداد بن أوس (ت 58هـ) رضي الله عنه وهو خزرجي، ابن أخ حسان بن ثابت، ولي إمارة حمص لعمر بن الخطاب، وكانت وفاته أواخر ولاية معاوية في القدس، وأسامة بن زيد بن حارثة (ت 57هـ) رضي الله عنه سكن ناحية الرملة ومات بها، وواثلة بن الأسقع (ت 85هـ) رضي الله عنه الذي سكن بيت المقدس ومات بها، وفيروز الديلمي رضي الله عنه وهو من فرس صنعاء وهو قاتل مدَّعي النبوة الأسود العنسي، ودحية الكلبي رضي الله عنه شهد كثيراً من الوقائع، كما شهد اليرموك، بعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم يدعوه للإسلام فلقيه في القدس وسلمه الرسالة، وسكن فلسطين وعاش فيها إلى خلافة معاوية، وتوفي في قرية "الدحي" التي نسبت إليه وجبلها القائمة عليه، وقبره معروف يُزار،[122] والصحابي عبد الرحمن بن غنم الأشعري (ت 78هـ) رضي الله عنه فقيه الشام وشيخ أهل فلسطين، كان ضمن البعثة التعليمية التي أرسلها ابن الخطاب، لتعليم أهل فلسطين أمور دينهم،[123] والصحابي علقمة بن مجزر الكناني، أرسله ﷺ في تبوك للاستطلاع إلى فلسطين، شهد اليرموك وحصار بيت المقدس، وكان عاملاً لعمر بن الخطاب على القدس.[124]

ومن الصحابة أيضاً أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، شهد بدراً والمشاهد كلها ومات بفلسطين وعمره 85 عاماً.[125] ومسعود بن أوس بن زيد، شهد بدراً وفتح مصر، وتوفي بالقدس. وسلام بن قيس بن قيصر الحضرمي (وقيل سلامة أو سلمة)، كان والياً لمعاوية على بيت المقدس.[126] وزنباع بن روح الجذامي، وهو من أهل فلسطين قبل الإسلام،[127] ومالك السرايا مالك بن عبد الله الخثعمي رضي الله عنه ومنهم من يجعله في عداد التابعين، ولي الصوائف زمن معاوية ثم يزيد ثم عبد الملك، وهو من أهل فلسطين.[128]

ومن الصحابة أيضاً الذين عاشوا وتوفوا في فلسطين أبو ريحانة شمعون الأنصاري، وذو الأصابع التميمي، وأبو أبيّ بن أم حرام الأنصاري الخزرجي، وأنيف بن ملة الجذامي، وسويد بن زيد الجذامي، وسعد بن وائل بن عمرو العبيدي الجذامي، وأبو رويحة الفزعي واسمه ربيعة بن السكن رضي الله عنهم أجمعين.[129]

وممن سكن بيت المقدس من الصحابة إبراهيم بن أبي علة العقيلي، ويزيد بن سلام، وعبد الله بن محيريز الجمحي، وزياد بن أبي سودة رضي الله عنه.[130]

ورفع التابعون راية الصحابة على أرض فلسطين، وهناك الكثير ممن ولد فيها أو سكنها أو زارها، ومنهم رجاء بن حيوة الكندي (ت 112هـ/730م) وهو من أهل فلسطين من مواليد بيسان، وكان أميناً على بيوت أموال عبد الملك بن مروان، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك بتولية عمر بن عبد العزيز. ومن التابعين أيضاً عبادة بن نسي الكندي (ت 118هـ/736م) وكان جليل القدر، يُنعت بسيد أهل الأردن، تولى قضاء طبرية، ومنهم أيضاً مالك بن دينار، وعبد الرحمن الأوزاعي، وروح بن زنباع، وهانئ بن كلثوم بن عبد الله، وحميد بن عبد الله اللخمي، وسفيان الثوري، وابن شهاب الزهري.[131]

ومن كبار الأئمة والفقهاء الذين عاشوا في فلسطين وزاروها الإمام محمد بن إدريس الشافعي الذي ولد في مدينة غزة، وإبراهيم بن أدهم، والليث بن سعد، وأبو بكر محمد الطرطوشي، وأبو بكر الجرجاني، وابن قدامة المقدسي. أما الإمام ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني فقد ولد وعاش في مصر بعد أن هاجر إليها أسلافه بعد خراب عسقلان 669هـ.[132]

وإلى فلسطين ينتسب الفاتح الإسلامي الكبير موسى بن نصير اللخمي (19–97هـ) فاتح الأندلس، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب، وكان جده من موالي ابن عامر الذي دعي المرج باسمهم (مرج ابن عامر) أصله من قيسارية، رئيس فنّ الكتابة وسيد الإنشاء وشيخ الدواوين صاحب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقتل معه سنة 132هـ/750م.[133] وإلى فلسطين أيضاً ينتسب أول علماء الكيمياء المسلمين الكبار خالد بن يزيد الأموي، وهو أول من نقل علوم الفرنج إلى العربية في دولة الإسلام.[134]

ويمكن أن ينسب إلى فلسطين، حسب التقسيمات الجغرافية الإسلامية القديمة، أول ثلاثة خلفاء من دولة بني العباس؛ إذ ولد كل من أبي العباس السفاح، وأبي جعفر المنصور وابنه المهدي في الحميمة من جند فلسطين (الشام الأولى)، وهي تقع الآن شرق الأردن على يمين الطريق من معان إلى العقبة.[135]

التقسيمات الإدارية لبلاد الشام في صدر الإسلام والعصر الأموي

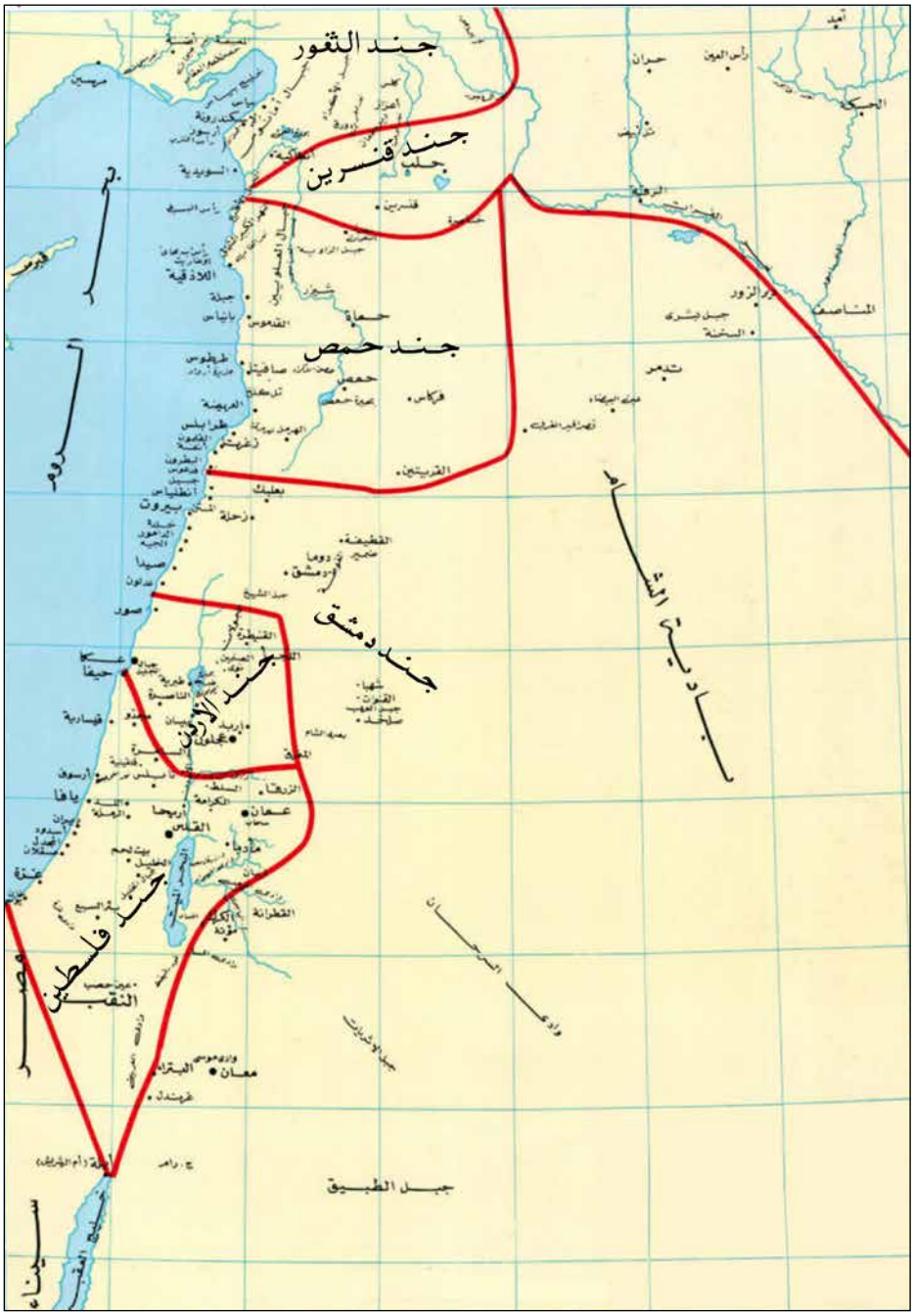

المصدر: حسين مؤنس، **أطلس تاريخ الإسلام** (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1987)، ص 142. (بتصرف)

ومن الوزراء "الفلسطينيين" المشهورين الربيع بن يونس، الذي ينتسب إلى العائلة الكيسانية من جبل الخليل، كان حاجباً ثم وزيراً للمنصور، ثم وزيراً ومستشاراً للمهدي، أما ابنه الفضل بن الربيع فعمل حاجباً للمنصور، ثم وزيراً للمهدي، ثم وزيراً للهادي، ثم حاجباً لهارون الرشيد، ثم وزيراً للأمين بن هارون الرشيد،[136] ومن الوزراء أيضاً معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعري الطبراني استوزره المهدي، وفوَّض إليه أمر الدولة العباسية، وفي أيام وزارته علا شأن الوزارة لكفاءته ومقدرته،[137] وأحمد بن أبي خالد يزيد بن عبد الرحمن الكاتب الأحول، وكان من خيار الوزراء الذين استوزرهم المأمون.[138]

ومن العلماء المعروفين عقيل بن خالد الأيلي (ت 144هـ) روى الحديث عن مالك بن أنس، وآدم بن أبي عباس العسقلاني (ت 220هـ) روى عنه البخاري، والعباس بن محمد الجرجي (ت 320هـ) محدث فلسطين ينسب إلى قرية بيت جرجا من أعمال غزة، وسليمان بن أحمد اللخمي الطبراني (ت 340هـ)، وهو رحالة ومحدث مشهور من مواليد طبرية.[139]

وقد أحصى أحد الباحثين المعاصرين أعيان المتوفين في بيت المقدس فقط في العهود الإسلامية فوجد أنهم 9 من الصحابة، و60 من الملوك والأمراء وأرباب الحكم، و167 من العلماء، و66 من الأولياء والصالحين، و53 من القضاة... وأضاف أن هذا غيض من فيض من أعيان المدفونين في بيت المقدس؛ لأن هناك كثيراً ممن توفوا فيها ضاعت أسماؤهم...، هذا في القدس وحدها فكيف بأرض فلسطين كلها؟![140]

خلاصة:

- رسَّخ الإسلام المكانة الكبرى لفلسطين، باعتبارها أرضاً مباركة مقدسة، وأرض الأنبياء، وأرض الإسراء، وبوابة الأرض إلى السماء (المعراج)، وأرض المسجد الأقصى، وأرض الطائفة المنصورة، وأرض المحشر والمنشر، وأرضٌ يُفصل فيها بين الحق والباطل.
- شجَّع الإسلام على الإقامة في بلاد الشام (وفي قلبها فلسطين)، وتطلّعت إليها أنظار المسلمين منذ العهد النبوي، واختلطت دماء الصحابة والتابعين وأبطال الإسلام

بثراها، واتخذت هويتها الإسلامية بفتحها ودخول أبنائها في دين الله أفواجاً، والذين تعرّبت لغتهم، وتعمّقت هويتها العربية الإسلامية باستقرار أبناء القبائل العربية فيها. وأصبحت فلسطين أرض وقفٍ إسلامي على المسلمين وأجيالهم.

- كان الدافع الإسلامي الإيماني هو الدافع الأساسي في فتح فلسطين وفي الفتوح الإسلامية، وكان جهاداً في سبيل الله ورفعاً لرايته وإعلاءً لكلمته ونشراً لدعوته؛ فاستحق المسلمون نصر الله وتمكينه لهم.
- أنجز المسلمون فتوح فلسطين والشام في فترة قصيرة (نحو ثلاث سنوات)، وحسموا المعارك الكبرى مع الإمبراطورية البيزنطية في أجنادين وفحل – بيسان واليرموك...، ببركة إخلاصهم وتضحياتهم، وبما أبرزوه من فنون قتالية وعبقرية عسكرية.
- قدَّم المسلمون في فتح القدس نموذجاً حضارياً راقياً، وكانت "العهدة العمرية" نموذجاً للعدالة والتسامح الديني. وتحت حكم الإسلام كان السلوك "جامعاً" مبنياً على التعايش والتسامح والعدل، والانفتاح على الآخرين واستيعابهم، وحمايتهم ومنع ظُلمهم أو الإساءة إليهم، بل والاستفادة من طاقاتهم في بناء الحضارة الإسلامية؛ في مقابل سلوك غيرهم "المانع" الذي فشل، عندما حكم القدس وفلسطين، في استيعاب الآخرين على مَرّ تجارب التاريخ.

هوامش الفصل الثاني

[1] رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأبو داود، انظر: المناوي، **فيض القدير: شرح الجامع الصغير**، ط 2 (د.م: دار الفكر، 1972)، ج 6، ص 403.

[2] حديث حسن رواه الطبراني، انظر: المرجع نفسه، ج 4، ص 228.

[3] **القرآن الكريم**، سورة الإسراء: 1.

[4] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 71.

[5] إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج 3، ص 184–185.

[6] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 81.

[7] إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج 3، ص 187.

[8] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: 18.

[9] إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج 3، ص 533.

[10] محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ط 4 (بيروت: دار القرآن الكريم، 1998)، ج 2، ص 151.

[11] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 21.

[12] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 1، ق 1، ص 343.

[13] محمد ناصر الدين الألباني، **تخريج أحاديث "فضائل الشام ودمشق" للربعي** (دمشق: المكتب الإسلامي، د.ت)، ص 5.

[14] حديث صحيح رواه الإمام أحمد في مسنده 463/6، وابن ماجه في سننه 429/1، نقلاً عن: محمد عثمان شبير، **بيت المقدس وما حوله** (الكويت: مكتبة الفلاح، 1989)، ص 24.

[15] حديث صحيح رواه الطبراني ورجاله ثقات، نقلاً عن: المرجع نفسه، ص 26.

[16] حديث صحيح، أخرجه الحاكم وأبو نعيم في الحلية، نقلاً عن: المرجع نفسه، ص 27.

[17] رواه الطبراني، وقال الهيثمي فيه أرطأة بن المنذر وبقية رجاله ثقات، نقلاً عن: المرجع نفسه، ص 27.

[18] رواه الإمام أحمد، نقلاً عن: المرجع نفسه، ص 31.

[19] انظر حول الفترة من بعثة المسيح عليه السلام وحتى الفتح الإسلامي في: محمود سعيد عمران، **معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية** (بيروت: دار النهضة العربية، 1981)، ص 19–75؛ وجوزيف نسيم يوسف، **تاريخ الدولة البيزنطية** (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د.ت)، ص 35–111، وانظر:

Moses Hadas, *A History of Rome: from its Origins to* 529 *A.D* (US: Peter Smith, 1976); and A.H.M. Jones, *The Later Roman Empire* 284–602 (Baltimore US: Johns Hopkins University Press, 1986).

[20] حول ميلاد رسول الله ﷺ والفترة المكية انظر مثلاً: عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ط 6 (بيروت والكويت: مؤسسة الرسالة و دار البحوث العلمية، 1979)، ص 36–118؛ وإسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 3، ص 2–177.

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

[21] ظلّ المسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى في الصلاة حتى السنة الثانية للهجرة، انظر: عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ص 135.

[22] انظر: المرجع نفسه، ص 89–92، وإسماعيل بن كثير؛ **البداية والنهاية**، ج 3، ص 108–118.

[23] **القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: 10.

[24] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 4، ص 99–102.

[25] انظر كتبه ﷺ إلى الملوك في: المرجع نفسه، ج 4، ص 262–273.

[26] أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق** (بيروت: دار النفائس، 1980)، ص 148.

[27] **القرآن الكريم**، سورة الروم: 2–4.

[28] انظر: عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ص 238–242؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 145–149.

[29] انظر: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 5، ص 2–18.

[30] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 6، ص 304–305؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 152–156.

[31] سيد قطب، **الجهاد في سبيل الله**، ص 99–106.

[32] حسن البنا، **مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا** (القاهرة: دار الشهاب، د.ت)، ص 85.

[33] **القرآن الكريم**، سورة التوبة: 111.

[34] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 173.

[35] علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، 1965)، ج 2، ص 404.

[36] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، 1970)، ص 11–12.

[37] المرجع نفسه، ص 23–24.

[38] المرجع نفسه، ص 17.

[39] المرجع نفسه، ص 18.

[40] محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام** (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ص 15–16.

[41] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 6، ص 352.

[42] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص 404.

[43] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط 2 (مصر: مطبعة السعادة، 1948)، ج 2، ص 315.

[44] محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 15–16.

[45] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 23–24.

[46] أحمد كمال، **الطريق إلى المدائن**، ط 6 (بيروت: دار النفائس، 1986)، ص 212–263؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 159.

[47] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 161–162.

[48] المرجع نفسه، ص 162–170؛ والأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 1–6.

[49] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 171.

[50] المرجع نفسه، ص 176–192.

[51] المرجع نفسه، ص 195–196؛ والأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 27.

[52] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 209، و215.

[53] المرجع نفسه، ص 239–240، و247.

[54] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 30.

[55] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 208–210.

[56] المرجع نفسه، ص 238–242.

[57] المرجع نفسه، ص 273.

[58] المرجع نفسه، ص 263–272؛ وانظر: البلاذري، **فتوح البلدان** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983)، ص 120.

[59] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 90.

[60] محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2 (القاهرة: دار المعارف، 1969)، ج 3، ص 418.

[61] البلاذري، **فتوح البلدان**، ق 1، ص 135؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 280–281.

[62] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 291–298.

[63] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 102–103؛ وأيضاً: أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 305.

[64] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 305–306؛ وحسب الأزدي فإن الكلام الوارد في هذا النص على لسان أبي عبيدة كتبه عمر بن الخطاب بنفسه إلى أبي عبيدة ومعاذ بن جبل رداً على رسالتهما إليه، انظر: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 102.

[65] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 334، و346؛ والأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 131.

[66] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 113–114.

[67] المرجع نفسه.

[68] انظر نص مفاوضة معاذ للروم في: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 115–121.

[69] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 121–125.

[70] المرجع نفسه، ص 130؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 332.

[71] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 333.

[72] المرجع نفسه، ص 344؛ والأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 136.

[73] البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 122.

[74] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 344، و349.

[75] المرجع نفسه، ص 358–401.

[76] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 194.

[77] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 406–407؛ وانظر: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 152؛ والبلاذري، **فتوح البلدان**، ص 141.

[78] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 153–156.

[79] المرجع نفسه، ص 186.

[80] المرجع نفسه، ص 160.

[81] المرجع نفسه، ص 160–169.

[82] المرجع نفسه، ص 180–182.

[83] المرجع نفسه، ص 183.

[84] المرجع نفسه.

[85] المرجع نفسه، ص 184.

[86] المرجع نفسه، ص 170؛ وفي النص المشار إليه بين القوسين ذكر الأزدي ويبدو أن الصحيح هو "بالكثرة والقوة"، انظر: أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 428–429.

[87] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 170–171.

[88] المرجع نفسه، ص 189.

[89] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 433، و444.

[90] المرجع نفسه، ص 445.

[91] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 199–207.

[92] المرجع نفسه، ص 211.

[93] المرجع نفسه، ص 210؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 466، و471.

[94] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 218؛ الكلمة المشار إليها بين القوسين ذكرت في نص الأزدي "بالورق".

[95] المرجع نفسه، ص 219.

[96] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 474.

[97] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 220.

[98] المرجع نفسه، ص 221؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 475.

[99] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 476–480.

[100] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 225؛ ومحمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 206.

[101] محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج 3، ص 401.

[102] محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 217–218.

[103] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 487–489.

[104] محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 218.

[105] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 231؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 491–494.

[106] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 496، وذكر الواقدي أن شهداء المسلمين كانوا أربعة آلاف، انظر: محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**، ص 226.

[107] الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 231.

[108] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 500.

[109] المرجع نفسه، ص 509–510.

[110] المرجع نفسه، ص 511–516.

[111] المرجع نفسه، ص 513.

[112] البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 144.

[113] حول فتح القدس، انظر: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 246–259؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 523–527؛ ومحمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج 3، ص 607–608.

[114] محمد بن جرير الطبري، **تاريخ فتوح الشام**، ج 3، ص 609.

[115] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 7، ص 59–60.

[116] المرجع نفسه، ج 7، ص 60.

[117] انظر: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، ص 246–259؛ وانظر: مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** (عمّان: مكتبة المحتسب، 1973)، ج 1، ص 255.

[118] إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 7، ص 222.

[119] انظر: البلاذري، **فتوح البلدان**، ص 145–148؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص 534–535.

[120] مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج 1، ص 258.

[121] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2، ص 96.

[122] انظر: المرجع نفسه، ج 9، ق 2، ص97؛ ومصطفى مراد الدباغ، **القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين** (بيروت: دار الطليعة، 1979)، ص 47–48، و188.

[123] مصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلالتها**، ص 104.

[124] المرجع نفسه، ص 188.

[125] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2، ص 97.

[126] انظر: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي، **فضائل بيت المقدس**، تحقيق محمد مطيع حافظ، سلسلة فضائل الشام رقم 2 (دمشق: دار الفكر، 1985)، ص 90–92.

[127] مصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلالتها**، ص 104.

[128] المرجع نفسه، ص 98–99.

[129] ضياء الدين المقدسي، **فضائل بيت المقدس**، ص 90–92؛ ومصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلالتها**، ص 98، و111–113.

[130] شفيق جاسر أحمد محمود، **تاريخ القدس: العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية** (عمّان: دار البشير للنشر والتوزيع، 1984)، ص 125–126.

[131] مصطفى مراد الدباغ، **من هنا وهناك** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986)، ص 80، و109.

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

[132] مصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص 187؛ وشفيق محمود، **تاريخ القدس**، ص 126–143.

[133] انظر: مصطفى الدباغ، **من هنا وهناك**، ص 80–81؛ ومصطفى الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص 138–140.

[134] انظر: صالح مسعود أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، ط 3 (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، 1970)، ص 24–25.

[135] مصطفى الدباغ، **من هنا وهناك**، ص 81.

[136] المرجع نفسه، ص 82.

[137] المرجع نفسه.

[138] المرجع نفسه، ص 83.

[139] المرجع نفسه، ص 112.

[140] جميل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس: دراسة تاريخية لمقابر القدس وتربها وإثبات بأسماء الأعيان المدفونين فيها** (عمّان: مؤسسة آل البيت: المجموع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، 1981)، ص 150.

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

The Road to Jerusalem

A Historical Study of the Islamic Experience in the Land of Palestine From the Time of the Prophets to the Twenty First Century

هذا الكتاب

فلسطين... الأرض المباركة، ساحة الصراع الدائم بين الحق والباطل، منذ أن رفع إبراهيم عليه السلام راية الحق والتوحيد فيها وأجيال الأنبياء والصالحين والشهداء تتوارثها وتتداولها، تحافظ على هويتها وأصالتها. كلما أَنَّت الأرض المقدسة من وطأة الغاصبين، كلما جاء من أهل الحق من يجلو عنها الظلام، لتشرق من جديد بنور التوحيد.

هذا الكتاب... يستعرض التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء إلى عصرنا (حتى سنة 2022)، يدرس الفتح الإسلامي لفلسطين، وتجربة تحريرها من أيدي الصليبيين والتتار، ويستقرئ واقعها الحديث والمعاصر منذ أواخر الدولة العثمانية؛ ويسلّط الضوء على دور التيار الإسلامي في الانتفاضات والثورات والعمل المقاوم، ضد الاحتلال البريطاني والكيان الصهيوني، بما في ذلك أدوار الحاج أمين الحسيني، وحركة القسام "الجهادية" والإخوان المسلمين وحماس والجهاد الإسلامي...

إنه دعوة لاحتفاظ الأمة بأصالتها والإصرار على حقها، وتأكيد على أن الكيان الصهيوني الغاصب إنما هو مرحلة من تاريخ الصراع وحلقة من سلسلته، وسيزول كما زال من سبقه من أهل الباطل، عندما تثوب الأمة المسلمة إلى رشدها وتستجمع عوامل قوتها ووحدتها ونهضتها.

هذا الكتاب... يستجيب لرغبة الكثير من القراء في التعرف على مجمل تاريخ فلسطين وقضيتها من وجهة نظر إسلامية، وهو كتاب أكاديمي موثّق من الناحية العلمية، حافل بالمعلومات، ولكنه جاء سهلاً بعيداً عن الجفاف والجمود، كما سعى لأن يستلهم مواطن العبرة والعظة، دونما حاجة لخطابة عاطفية أو إنشاء.

ISBN 978-614-494-036-5

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب.: 14-5034 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net